

يناقض ما خبرنا، إلا أن ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحٌ إعصاريةٌ، تسبب في الحبشة جواً صحواً، والرياح الشمالية في أوروبا عاتيةٌ، في حين أنها في تلك البلاد بليلةٌ عليلةٌ. والآن، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلةً أخرى رداً على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل، إلا أننا سنكتفي بما أسلفنا، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه باديةً ذى بدء من حدود الاختصار. ولما كنا قد قسّمنا هذا الكتاب - لطوله - إلى قسمين حرصاً منا على تناسب أجزاء هذا السفر، فسنهني هنا هذا القسم من تاريخنا هذا. وسنورد في الجزء التالي بقية تاريخ مصر، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة في مصر في أقدم العصور.

## الجزء الثاني

٤٢ إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم - لضخامته - إلى جزئين. يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله، وعلى معتقدات المصريين في نشأة الكون، وتكوين العالم في البدء، وفي الآلهة التي أنشأت في مصر مدناً ونسبتها إلى نفسها، وعلى آرائهم في الأناسى الأول، وفي أسلوب الحياة في العصر القديم، وفي عبادة الآلهة الأزلية، وفي بناء المعابد، وعلى وصف البلاد المصرية، والروايات التي تحاك حول نهر النيل، وأسباب فيضانه، وآراء المؤرخين والفلاسفة في ذلك. ويحتوى كذلك على تنفيذ كل آراء المؤرخين والفلاسفة في

ذلك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل من آراء هؤلاء واحداً بعد واحد<sup>(١)</sup>. وسنسرده في هذا الجزء بقية ما أسلفنا، مبتدئين بملوك مصر الأول، وسنذكر أعمال كل منهم إلى عهد أمازيس، بعد أن نصف باختصار أسلوب الحياة في مصر في أقدم العصور.

**٤٣** أما عن طريقة معيشتهم في العصر القديم، فيحكى أنهم كانوا يتخذون أكلهم في ذلك العهد السحيق القدم من الحشائش وسوق نباتات المستنقعات وجذورها، بعد الاطمئنان إلى مذاقها، ولقد كان النبات المسمى أجروستيس<sup>(٢)</sup>. أول وأهم ما أضافوه إلى أكلهم، ذلك لامتيازه بشدة الحلاوة، ولأنه غذاء كاف لجسم الإنسان. ولاحظوا كذلك أنه مفيد للماشية، يزيد وزنها بسرعة. وعرفنا بفضل هذا النبات يحمله المصريون عندما يتوجهون للآلهة ويصلون. وقد كانوا يعتقدون أن الإنسان من هوام المستنقعات والبرك، مستدلين على ذلك بطراوة بشرته، وبعوض الخواص الطبيعية الأخرى. وبأنه أحوج إلى الطعام الرطب منه إلى الطعام الجاف. ويقال إن السمك كان ثانياً ما أقام به المصريون أودهم، ويزودهم النيل بكميات وفيرة منه، خصوصاً بعد الفيضان حينما ينخفض النهر ويجف<sup>(٣)</sup>. وكذلك يأكلون لحم بعض الأنعام، ويتخذون من جلودها لباساً، وكانوا يصنعون بيوتهم من الغاب، ولم تزل آثار هذه العادة باقية

(١) يكاد يكون من المحقق أن هذه الفقرة ليست من قلم ديودور. ولكن الكلام الذي يليها لا يتسق مع نهاية الفصل الحادى والأربعين وهو نهاية الجزء الأول.

(٢) هو النجيل، وفى اللاتينية Cynodon Dactylon

(٣) يشير إلى جفاف المستنقعات التى يخلفها فيضان النهر.

بين الرعاة المصريين، فهل إلى الآن لا يصنعون بيوتهم - فيما يقال - إلا من الغاب، واجدين في ذلك كفايتهم. وبعد أن أمضى المصريون أجيالاً عديدة ملتزمين هذا الضرب من الحياة فطنوا أخيراً إلى ما يصلح للأكل من محصول الأرض، ومن بينها الخبز المصنوع من البشنيين. وينسب البعض هذا الاكتشاف إلى إيزيس، بينما ينسبه البعض الآخر إلى أحد الملوك القدماء وهو المدعو مينا، ويروى الكهنة في أساطيرهم أن هرمس ابتكر العلوم والفنون، بينما استنبت الملوك ما كان ضرورياً لإقامة الأود. ولذلك لم يكن يؤول الملك في العصور القديمة لأولاد الملوك، بل للذين يؤدون أعظم الخدمات، وذلك إما لأن القوم كانوا يحثون ملوكهم على أداء الخير العام، وإما لأنهم حقيقة وجدوا في كتبهم المقدسة نصاً بهذا المعنى. **ع** ويروى بعضهم أنه في البدء حكم مصر الآلهة والأبطال لمدة تقل قليلاً عن ثمانية عشر ألف عام، وأن حورس بن إيزيس كان آخر من حكم مصر من الآلهة، ويقال إن البشر حكموا البلاد بعد ذلك فترة تقل قليلاً عن خمسة آلاف عام، وتمتد إلى الأولمبياد الثمانين بعد المائة<sup>(١)</sup>، حينما زرت مصر في عهد بطليموس المسمى نيوس ديونيسيوس<sup>(٢)</sup>، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش والفرس والمقدونيين<sup>(٣)</sup>، فقد حكم البلاد أربعة ملوك من الأحباش، ولكن بغير

(١) الأولمبياد ال ١٨٠ = ٦٠-٥٦ ق.م

(٢) هو بطليموس الحادي عشر حكم مصر من ٨٠-٥١ ق.م ويعرف ببطليموس الزمار.

(٣) حكم الأحباش مصر من ٧١٥-٦٦٣ ق.م تقريباً وهو عهد الأسرة الخامسة والعشرين، وحكمها الفرس من ٥٢٥-٣٣٢ ق.م وحكمها المقدونيون من ٣٣٢-٣٠ ق.م

اطراد فى فترات متقطعة، ومجموع سننى حكمهم يقل قليلا عن ست وثلاثين سنة. وبعد أن قهر قمبيز البلاد بقوة السلاح، حكم الفرس مصر خمسًا وثلاثين ومائة سنة، بما فى ذلك عهود ثورات المصريين التى أشعلوها لعدم استطاعتهم احتمال قسوة حكم الفرس، ولتجديف هؤلاء بآلهة البلاد. وحكم المقدونيون، وهم آخر من حكم البلاد، ستة وسبعين ومائتى عام. وفيما عدا هذه الفترات تولى الملك ملوك من أهل البلاد، عددهم سبعون وأربعمائة ملك، وخمس ملكات. واحتفظ الكهنة فى كتبهم المقدسة التى يتوارثونها بانتظام من قديم الزمان جيلا بعد جيل بوثائق عن هؤلاء جميعاً، تروى عن مبلغ جرم كل منهم، وعن شاكلته، وعمّا قام به فى عهده من أعمال. وإذا نحن تحدثنا بالتفصيل عن كل منهم، كانت مهمتنا طويلة شاقة، وقد تكون بغير طائل كذلك، لأن أكثر هذه الوثائق عديم القيمة، ولذلك سنحاول أن نسرّد باختصار أكثر هذه الروايات جدارة بالتسجيل.

**٤٥** يقول المصريون إن مينا خلف الآلهة على حكم مصر، وهو الذى علم عامة الناس كيف يعبدون الآلهة، وكيف يقربون الأضاحى. هذا، وقد استحدث المناضد والسرر واستعمال الأغذية الثمينة. وبالجملة، فقد أدخل الترف وحياة البذخ، ويقال إن تنفاخثوس Tnephachthus<sup>(١)</sup> أبوبخوريس Bbocchoris، الحكيم الذى تولى ملك مصر بعد ذلك العهد بأجيال عديدة، قام بحملة على بلاد العرب، ولما نفذت المؤن، بسبب

(١) تنفاخثوس هو تفاخت حكم حوالى ٧٣٠ ق.م.

محل المنطقة ووعورتها، اضطر أن يبقى يوماً واحداً بلا زاد وأن يقنع بحياة غاية فى التقشف بين من التقى بهم من عامة الشعب، ولقد سر لذلك غاية السرور، فأنكر الترف ولعن الملك الذى كان أول من أدخل البذخ، ولقد أثر هذا التغيير فى الأكل والشرب والنوم فى نفسه إلى حد أنه نقش لعنته باللغة الهيروغليفية على معبد الإله زيوس فى طيبة ويبدو أن هذا هو السبب الرئيسى فى أن شهرة الملك مينا ومجده لم يبقيا على مدى العصور التالية. وخلفت الملك المذكور - فيما يقال - سلالته، وهى فى مجموعها اثنان وخمسون ملكاً، حكموا أكثر من أربعين وألف عام، ولم يحدث فى عهدهم ما يستحق الذكر. وبعد ذلك تولى بوسيريس Busiris الملك وخلف ثمانية من ذريته كان آخرهم سميا له، وهو الذى أنشأ فيما يقال المدينة التى يسميها المصريون مدينة زيوس الكبرى ويسميها اليونانيون طيبة. وقد جعل محيطها ١٤٠ ستادا وجملها تجميلاً رائعاً، بإقامة المباني الضخمة والمعابد الفخمة وغيرها من الآثار. وأقام كذلك مساكن خاصة بعضها مؤلف من أربعة طوابق والبعض الآخر من خمسة. وبالجملة، فقد جعل من هذه المدينة أجمل المدن لا فى مصر وحدها بل فى العالم أجمع. ويرجع الفضل إلى غناها وقوتها فى أن شهرتها بلغت جميع الأصقاع حتى إن الشاعر ذكرها فى شعره حيث يقول:

« لا ولا كل ثروة طيبة المصرية، التى أمتلأت خزائنها أيما امتلاء، طيبة ذات المائة باب، التى ينطلق من كل باب منها،

مئات محارب بخليهم ومركباتهم<sup>(١)</sup>. ويقول البعض إن المدينة لم تكن ذات مائة باب فعلاً، وإنما كان لمعابدها مداخل خارجية كثيرة وعظيمة، ومنها نشأت تسميتها بذات المائة باب، كأنها ذات أبواب كثيرة. والواقع أن عشرين لألف عجلة حربية كانت تنطلق منها إلى الحرب، فقد كان على طول ضفة النهر من منف إلى طيبة في الناحية الليبية مائة حظيرة للخيل تتسع كل منها لمائتي حصان، وما زال أساس هذه الحظائر بادياً إلى الآن<sup>(٢)</sup>.

**٦٤** ولم يؤثر عن هذا الملك وحده الاهتمام بتجميل طيبة، بل لقد وجه الكثيرون ممن خلفوه في الحكم اهتماماً خاصاً بتقدم هذه المدينة. فلم تزين مدينة أخرى تحت الشمس بمثل ما زينت به من النصب العديدة الفخمة المصنوعة من الفضة والذهب والعاج أيضاً، والتمثيل الضخمة، ومجموعات المسلات المنحوتة من حجر واحد. ومن بين المعابد الأربعة التي أقيمت في هذه المدينة يروع أقدمها<sup>(٣)</sup> لجماله وضخامته، فمحيطه ١٣ ستادا وارتفاعه ٤٥ ذراعاً وسمك جدرانها ٢٤ قدماً، وبهاء نصبه الداخلية متناسب مع تلك العظمة. فهذه النصب تروع بباهظ نفقاتها، وبما بلغته من منتهى الدقة في صناعتها. ولقد ظلت تلك المباني قائمة إلى عصور متأخرة جداً، أما الفضة والذهب

(١) هوميروس الإلياذة ٩ ، ٣٨١-٣٨٤

(٢) يرى بعض النقاد أن الجملة من « ويقول البعض... إلى ... إلى الآن » ليس من قلم ديودور والواقع أن قوله « في الناحية الليبية » لا ضرورة له.

(٣) يعنى بغير شك معبد آمون في الكرنك.

والمصنوعات العاجية الثمينة، والأحجار الكريمة فقد انتهبها الفرس عندما أحرق قميميز المعابد المصرية. ويقال إن الفرس نقلوا حينئذ هذه الثروات إلى آسيا وجلبوا الصناعات من مصر ليبتنوا لهم قصورهم الشهيرة في برسيوليس وسوسا وميديا. ويقال إن ثروة مصر كانت في هذا العهد عظيمة إلى حد أنه بعد أن أتت النيران على ما تركته يد النهب، جُمع ما بقي بدقة بعضه إلى بعض ووجد أنه يقوم بأكثر من ثلثمائة طالنت من الذهب وبما لا يقل عن ثلثمائة وألفين طالنت من الفضة. وهناك فيما يقولون مقابر رائعة للملوك القدماء، ولم تدع لمن خلفهم من الراغبين في محاكاتهم في مضمار العظمة، مجالاً للسبق. ويقول الكهنة إنهم يجدون فيما بين أيديهم من وثائق أنه كان يوجد سبع وأربعون مقبرة ملكية بقي منها إلى عهد بطليموس بن لاجوس<sup>(١)</sup> فيما يقولون سبع عشرة مقبرة. كان أكثرها قد تهدم عندما زرنا هذه المناطق في الأولمبياد الثمانين بعد المائة. وليس الكهنة المصريون وحدهم هم الذين يقصون ذلك اعتماداً على وثائقهم، بل إن الكثيرين من اليونانيين الذين زاروا طيبة في عهد بطليموس بن لاجوس وكتبوا في التاريخ المصري ومن بينهم هيكتايوس HECATAEUS<sup>(٢)</sup> يوافقون على ما أوردت.

(١) بطليموس الأول حكم مصر ٣٢٣ - ٢٨٥ ق.م.

(٢) هيكتايوس الأبدري مؤرخ من القرن الثالث ق. م. وكتابه «مصريات» من المصادر التي اعتمد عليها ديودور اعتماداً كبيراً.

٤٧ يقول هيكتايوس إنه على بعد عشرة ستاد من المقابر الأولى، التي يؤثر أنها تضم رفات خليلات زيوس يقوم نصب لملك يدعى أوزيماندياس Osymandyas<sup>(١)</sup> وعند مدخله دهليز من الرخام الملون طوله ٢ بليثرون، وارتفاعه ٤٥ ذراعاً، وفي نهايته يوجد بهو مربع الشكل من الحجر طول كل من أضلاعه ٤ بليثرون، يقوم على غير المألوف على تماثيل حيوانات مقطوعة من كل حجر واحد، طول كل منها ١٦ ذراعاً، منحوتة على الطراز القديم، والسقف كله مقطوع من حجر واحد، وعرضه باعان مغطى باللون الإسمانجونى وموشى بالنجوم. ويلى البهو مدخل آخر وممر يشبه الممر الذى سبق وصفه من جميع الوجوه، ولكنه يمتاز عليه بدقة ما حفر فيه من صور جميع الأشكال. وبجانب المدخل ثلاثة تماثيل، مقطوع كل منها من حجر واحد أسود أسوانى، من بينها تمثال جالس هو أكبر تماثيل مصر جميعها<sup>(٢)</sup>. فطول قدمه يزيد على سبع أذرع. أما التمثالان الآخران فينتصبان بحذاء الركبتين أحدهما على اليمين والآخر على اليسار، وهما لابنته وأمه، وهما أصغر من الأول حجماً. وهذا الأثر جدير بالتنويه لا لضخامته فحسب، بل لباهر صناعته ولطبيعة الحجر الممتازة، فبالرغم من ضخامته هذه لا يوجد به شذخ أو عيب واحد. وقد نقش عليه «أنا أوزيماندياس، ملك الملوك، إذا أراد أحد أن يعرف مبلغ عظمتى، وأن يعلم أين أرقد فليبرزنى فى واحد من

(١) الكلام على معبد الرسيوم فى الأقصر، ويظهر أن لفظ أوزيمانديماس مأخوذ من أوزر مارع، أحد ألقاب رمسيس الثانى الملكية.

(٢) تقدر زنة هذا التمثال بألف طن وهو لرمسيس الثانى.

أعمالي». وهناك أيضاً تمثال آخر لأمه ينتصب متفرداً، مقطوع من حجر واحد طوله عشرون ذراعاً. وهي تكلل رأسها بثلاثة تيجان ترمز إلى أنها بنت ملك، وزوج بنت ملك، وأم ملك، وفي هذا الممر يوجد بهو آخر أجدر من الأول بالذكر، حفرت فيه صور في جميع الأوضاع تمثل حربه ضد ثوار بكتريا (بلخ) Bactria، فقد استقل ضدهم جيشاً مؤلفاً من أربعمئة ألف راجل، وعشرين ألف فارس، وقسم الجيش كله إلى أربع فرق، وضعت كل واحدة منها تحت إمرة أحد أبناء الملك<sup>(١)</sup>.

وقد صور الملك على الحائط الأول لهذا البهو محاصراً قلعة يحيط بها نهر، وقد انبرى في الصف الأول لمن تصدى له، وبجانبه سبع يشد أزره، ويشيع الرعب من حوله. ويقول بعض مفسري هذه الرسوم، إن السبع أليف تربى على يدي الملك، وقام بنصيبه من مخاطر القتال، وجعل الأعداء يولون الأدبار خشية بطشه. ويقول البعض الآخر، إنه لما كان الملك بالغ البأس وأراد أن يمتدح نفسه بطريقة مبتذلة، فقد أبرز جبلته على صورة سبع.

أما الحائط الثاني فيرينا أسرى الحرب<sup>(٢)</sup> الذين اقتنصهم الملك. وقد خُصوا وقطعت أيديهم. ولعل في ذلك إشارة إلى وهن عزيمتهم، وقلة حيلتهم في مواجهة الأخطار. ونقشت على الحائط الثالث صور مختلفة ورسوم رائعة تمثل الملك يضحى ثيراناً، وتصور الانتصار الذي

(١) هذا وصف حملة رمسيس الثاني ضد الحيثيين سنة ١٢٨٨ ق.م. ويقدر عدد المصريين فيها إلى عشرين ألف مقاتل.

(٢) لقد قطعت أيدي قتلى الحرب لا الأسرى

أحرزه في الحرب. وفي وسط هذا البهو أقيم مديح تحت قبة السماء، من أحسن أنواع الرخام، دقيق الصنع بالغ الحجم. وفي ناحية الحائط الرابع يوجد تمثالان جالسان، قطع كل منهما من حجر واحد، طوله سبع وعشرون ذراعاً، وعلى جوانب هذين التمثالين توجد ثلاث ممرات تفضى من هذا البهو إلى بهو الأعمدة المشيد على نسق بهو الموسيقى Odeum، وطول كل من أضلاعه مائتا قدم وفيه مجموعة من التماثيل الخشبية تمثل خصوصاً تعلقت أعينهم بقضائهم، وهؤلاء القضاة مصورون على أحد الجدران<sup>(١)</sup> وقد بلغوا الثلاثين عدداً، ويتوسطهم قاضى القضاة وقد عصبت عيناه وتدلست صورة «الحق» من رقبته وتدلست كثير من الكتب. وترمز هذه الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشوة، وأن قاضى القضاة يجب ألا يعير شيئاً سوى الحق التفتاته.

**٩٠** ويلى هذا البهو رواق ذو غرف عديدة مختلفة تعد فيها المأكولات اللذيذة من جميع الألوان، وتوجد فى هذا الرواق رسوم أيضاً، فقد مثل الملك بألوان زاهية وهو يقدم للآلهة ذهباً وفضة، هى الدخل السنوى من جميع مناجم الفضة والذهب فى مصر. ويبين النقش المكتوب تحت الرسم قيمة هذا الذهب والفضة التى تبلغ اثنين وثلاثين مليون من الفضة. ويلى هذا الرواق المكتبة المقدسة وقد كتب على وجهتها «مصحح الروح» ويجوار المكتبة ترى صور جميع آلهة مصر، ويرى الملك كما فى الصورة السابقة وهو

(١) يضيف بعض النقاد هنا كلمة «بغير أيدى» حتى يستقيم معنى رمز الصورة إلى أن القاضى يجب ألا يقبل الرشوة.

يقدم لكل منهم ما هو جدير به ، وكأنه يشهد أوزوريس ومعاونيه في العالم السفلي على أنه قضى حياته في البر وصالح الأعمال نحو الناس والآلهة جميعاً. وفي ملاصقة المكتبة بنيت غرفة في غاية الأناقة ، بها عشرون سريراً ، وفيها صور تمثل زيوس وهيرا والملك أيضاً ، ويظهر أن الملك كان قد دفن هنا. وحول هذه الحجرة ، بنيت عدة غرف صغيرة بها رسوم رائعة لجميع صور الحيوانات المقدسة في مصر. ويقضى طريق صاعد من بين هذه الغرف إلى المقبرة نفسها ، عند نهايته توجد عند الضريح حلقة ذهبية محيطها خمس وستون وثلاثمائة ذراعاً وسمكها<sup>(١)</sup> ذراع واحدة ، حفرت عليها - على مسافات متساوية طول كل منها ذراع واحدة - أيام السنة ، وطلوع الكواكب وغروبها كما تقضى الطبيعة ، ومواقيت الفصول مستخرجة منها بحساب علم الهيئة المصرى. ويقال إن الفرس سرقوا هذه الحلقة عندما غزا قمبيز مصر.

هكذا ضريح الملك أوزيماندياس الذى لم يبرز سائر الضرائح فى باهظ نفقاته فحسب بل فى تفنن الصناعات فيه أيضاً.

٥٥ ويدعى أهل طيبة أنهم أعرق الناس جميعاً فى القدم ، وأن الفلسفة نشأت بينهم أولاً ، وكذلك علم الهيئة الدقيق وذلك لأن جو بلادهم ساعدهم أن يروا بجلاء طلوع النجوم وغروبها. ويقولون كذلك إن الشهور والسنين مقومة عندهم بطريقة خاصة ، فهم لا يحسبون اليوم بالقمر بل بالشمس ، والشهر عندهم ثلاثون يوماً ، ويضيفون فى

(١)الأولى أن يقول « عرضها »

حسابهم خمسة أيام وربعاً كل اثني عشر شهراً، وبذلك يُتمون مدار السنة، فهم لا يزيدون شهوراً إضافية ولا يقطعون أياماً كما يفعل أكثر اليونانيين، ويظهر أن ملاحظتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر دقيقة، فهم يتكهنون بحدوثهما قبل أوأنيهما، ويتنبأون بكل جزئيات هاتين الظاهرتين بكل دقة.

ولقد أنشأ الثامن من سلالة هذا الملك ويدعى أوخوريوس Uchoreus مدينة منف أشهر المدن المصرية. فقد اختار لها أنسب موقع في البلاد كلها، حيث يتشعب النيل إلى فروع عديدة ويكون الدلتا التي سميت كذلك لشكلها. وهكذا أصبحت المدينة لحسن موقعها عند مفتاح البلاد مسيطرة على السفن التي تبحر جنوباً. وشيد حول المدينة سوراً طوله ١٥٠ ستادا شديد المتانة عظيم الفائدة. وابتناه بالطريقة التالية: لما كان النيل يجري حول المدينة، ويغمرها عندما يفيض فقد أقام في الجنوب سدا عظيما يكون عند الفيضان بمثابة حاجز لمياه النهر، وحصنا ضد الأعداء في غير وقت الفيضان، ثم احتفر حول جميع الجوانب الأخرى للمدينة بحيرة واسعة عميقة، ولما امتلأت هذه من ماء النهر المتدفق، وغمرت كل المساحة المحيطة بالمدينة فيما عدا الجانب الذي أقام فيه السد، هيأت للمدينة موقعاً شديد المناعة. ولقد كان خيال منشي منف صادقا في التكهن بملاءمة هذا الموقع إلى حد أن كل الموك تقريباً الذين خلفوه هجروا طيبة واتخذوا منف قاعدة ومقراً لبلادهم. وإلى هذا يرجع السبب في أنه من ذلك الحين بدأت شهرة طيبة في الذبول<sup>(١)</sup> في حين

(١) لم يستطع ديودور - وشأنه في ذلك شأن سائر المؤرخين اليونانيين - أن يكون فكرة صحيحة عن التاريخ المصري، فطيبة لم تزدهر إلا في عصر الأسرة الثامنة عشرة في حين أن =

ظلت شهرة منف في ازدياد إلى عهد الإسكندر الذي أنشأ على ساحل البحر المدينة التي سميت بأسمه، وتنافس خلفاؤه على عرش مصر جميعهم في العمل على زيادة روعتها، فزينها بعضهم بالقصور الفخمة، والبعض الآخر بأحواض السفن والموانئ، والبعض الآخر بمختلف النصب التذكارية والمباني الرائعة حتى إن أكثر الناس يعتبرونها أولى مدن العالم أو ثانيها. حسبى هذا الآن، فسأصف المدينة بالتفصيل المناسب، وبعد أن هياً منشئ منف هذا السد وهذه البحيرة، ابتنى قصرًا لا يقل شأنًا عن غيره في البلاد الأخرى. ولكنه لا يتناسب مع أريحية أسلافه ولا مع ما أبدوه من شغف بالجمال.

٥٩ ويعتقد المصريون أن هذه الحياة الدنيا في غاية التفاهة، ولكنهم يعلقون الأهمية الكبرى على الحياة الأخرى التي تجعلها الفضيلة شيئًا مذكورًا. وهم يسمون بيوت الأحياء منازل، لأنهم يقطنونها مدة قصيرة، بينما يسمون قبور الموتى المساكن الدائمة، لأننا نكمل حياتنا إلى الأبد في العالم السفلى. وإلى هذا يرجع السبب في قلة اهتمامهم بأثاث بيوتهم في حين أنهم لا يُجارون في اهتمامهم بقبورهم. ويذهب البعض إلى أن مدينة منف قد سميت كذلك نسبة إلى ابنة الملك الذي أنشأها، فقد تواترت الروايات بأن نهر النيل أغرم بها، فاتخذ هيئة ثور، وأنجب منها إيجيببتوس الذي أعجب به المصريون لفضائله وسميت البلاد جميعًا باسمه. ولما اعتلى العرش كان رعوفا عادلا، وفاضلا من جميع الوجوه. فأجمع الناس كلهم على أنه جدير بعظيم = منف كانت عاصمة الأسرات الأولى.

التقدير، ولذا فقد حظى من أجل برّه هذا بذلك المجد الذى ذكرت. وبعد ثمانية أجيال من عهد إيجيبتوس ارتقى عرش مصر مويريس<sup>(١)</sup> Moeris الذى ابتنى الجناح الشمالى من معبد منف، وقد بز سائر الأجنحة جميعها بهاء وروعة. واحتقر على بعد ١٠ سخينوس Schoeni من جنوب هذه المدينة بحيرة عظيمة الفائدة، ولو أنها تطلبت مجهوداً لا يتصوره العقل.

فيقال إن محيطها ٣٦٠٠ ستاد وعمقها فى الأكثر خمسون باعاً. فمن ذا الذى يستطيع أن يتصور ضخامة هذا العمل دون أن يكون محقاً فى تساؤله كم من عشرات الألوف من الرجال استخدموا، وكم من السنين استنفدت لتنفيذ هذا المشروع؟ حقاً لا يستطيع المرء أن يفى هذا المشروع الملكى، الذى أضفى على سكان مصر جميعاً كل هذا الخير والمنفعة، حقه من الثناء.

**٥٧** ولما كان النيل لا يرتفع دائماً إلى منسوب معين، وكان غنى البلاد متوقفاً على مستوى انتظام ارتفاعه، فقد احتقر الملك هذه البحيرة لتخزين المياه الزائدة حتى لا يغمر النهر البلاد بتيابه القوى فى غير أوان الحاجة فيكون البرك والمستنقعات، وحتى لا يهلك الزرع لقلّة المياه إذا لم يرتفع إلى المستوى المطلوب. واحتقر قناة فيما بين النهر والبحيرة طولها ٨٠ ستادا وعرضها ثلاث بلثرونات، وبوساطة هذه القناة كان يطلق أحياناً مياه النهر فى البحيرة. وكان أحياناً يغلقها، وبذلك

(١) هو فيما يظهر أمنمحات الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة. والحديث حول منخفض الفيوم، وبحيرة قارون.

كان يزود الفلاحين بالمياه في الموسم المناسب بفتح البوغاز وغلقة بطريقة فنية، ولكنها في الوقت نفسه كثيرة التكاليف، لأنه كان يلزم لمن يريد فتح أو غلق هذا البوغاز لا أقل من خمسين طالنت. وقد ظلت البحيرة تفي بحاجة المصريين إلى وقتنا هذا وهي تحمل اسم محتفرها، فهي تسمى إلى الآن بحيرة مويريس. وبعد فين كان الملك يحفر هذه البحيرة ترك في وسطها بقعة ابنتي عليها قبرا وهرمين، أحدهما لنفسه والآخر لزوجيه، ارتفاع كل منهما ستاد واحد، وأقام على رأس كل منهما تمثالاً من الحجر جالساً على العرش، معتقداً أنه بإقامة هذه الآثار سيخلف بعده تذكراً خالداً لأعماله المجيدة. ووهب ما يجبي من الضرائب على الصيد في البحيرة لزوجيه لتنفقه على عطورها وأسباب زينتها الأخرى. وقد بلغت قيمة ما يصاد في اليوم الواحد منها طالنتاً من الفضة. إذ في البحيرة - فيما يقال - اثنان وعشرون نوعاً من السمك، وهي تستخرج بكميات وفيرة إلى حد أن الذين يعملون في حفظها على كثرتهم البالغة، كانوا يؤدون واجبهم بشق الأنفس. تلك إذن هي الرواية التي يحكيها المصريون عن مويريس.

٥٣ ويقال إنه بعد سبعة أجيال تبوأ سيسوسيس Sesosis<sup>(١)</sup> العرش وقام بأعمال عظيمة طغى صيتها على ما قام به أسلافه، وقد تضاربت الآراء بصدد هذا الملك بين مؤرخي اليونان، والمصريون أنفسهم لم يستقروا بشأنه على قرار سواء في ذلك الكهنة أو الشعراء الذين مدحوه.

(١) يسميه هيرودوت سيوستريس. وهرودوت هنا يخلط بينه وبين رمسيس الثاني ولكن الاسم على الأرجح مأخوذ من اسم سنوسرت الثالث أو أوسرتسن من فراعة الأسرة الثانية عشرة.

وسنحاول من جانبنا أن نثبت أكثر الروايات ترجيحاً وأشدّها اتفاقاً مع آثاره التي ما زالت قائمة في البلاد. عند ولادة سيسوسيس قام أبوه بعمل ملكى باهر إذ جمع من كل أنحاء مصر الأطفال الذكور الذين ولدوا في نفس اليوم ووكّل بهم مرضعات ومربين، وخصهم جميعاً بتربية وتعليم واحد، وقد كان سلوكه هذا قائماً على فرض أن الذين ينشأون معاً في خلطة وطيدة، متمتعين بقدر واحد من حرية وإعلان الرأي يكونون أشد الناس إخلاصاً وأشجع الأقران في الحرب، وكفل للأولاد ما يلزمهم بسخاء، ودرّبهم برياضة ومشاق لا تنقطع، ولم يكن يسمح لأحدهم بتناول طعامه قبل أن يكون قد قطع ثمانين ومائة ستاد جرياً، ولذلك، كانوا حين بلغوا مبلغ الرجال، صناديد أقوياء الجسم، جديرين لسمو أنفسهم بالقيادة، قادرين على احتمال المشاق لما درّبوا عليه من سامى الأغراض. وبدأ سيسوسيس بأن أوفده أبوه صحبة أترابه على رأس حملة إلى بلاد العرب، وبعد أن تحمل أهوال صيد الحيوانات المفترسة، وعانى مشاق نفاذ الماء وندرة الغذاء من حين إلى حين، غزا كل الشعب العربى، الذى لم يسبق أن استعبد من قبل ذلك العهد، ولما أنفذ بعد ذلك إلى الأقاليم الغربية أدخل معظم ليبيا تحت إمرة مصر، مع أنه كان لا يزال حديث السن جداً.

ولما اعتلى العرش بعد موت أبيه وقد ملأته فتوحاته السابقة زهواً، اعتزم أن يغزو كل المعمورة، وهناك من يقول إن ابنته أثيرتيس Athyrts دفعتّه إلى مد سلطانه على العالم أجمع. ويرى البعض أنها أفلحت، لما أمتازت به من شدة الذكاء، فى إقناع أبيها بأن الحملة

ستكون سهلة ميسرة، في حين يرى البعض الآخر أنها كانت تتعاطى الكهانة وأنها اطلعت على ما يضره الغيب عن طريق العرافة، والنوم في المعابد، وما يبدو في السماء من شارات. وكتب البعض أنه عند ميلاد سيسوسيس رأى أبوه هيفيستوس في منامه وأنبأه بأن الطفل المولود سيحكم العالم أجمع.

وهذا إذن هو السبب فيما يقولون في أن أباه جمع كل أترابه، وكفل لهم تنشئة ملكية متخذاً الأهبة من قبل لغزو العالم، ولما بلغ سيسوسيس مبلغ الرجال آمن بنبوءة الإله، وحُمل على القيام بهذه الحملة.

٥٤ وتحقيقاً لهذا الغرض كان مسعاه الأول كسب عطف المصريين، معتقداً أنه لكي يصيب نجاحاً في خطته يجب أن يكون المشتركون في الحملة مستعدين للقاء الموت في سبيل قاداتهم وأن يكون المخلفون في وطنهم بعيدين كل البعد عن الثورة. ولذلك فقد أضحى الخير على رعاياه أجمعين بكل ما استطاع من سُبُل، فاكتسب البعض بالهبات المالية، والبعض الآخر بإقطاعات الأرض، والبعض بالغاء العقوبات، وامتلك قلوبهم بحسن معاملته ودمائه أخلاقه، ففعا عن كل من اتهم بالخيانة العظمى، وأعفى المسجونين بسبب الدين من التزاماتهم، وقد كانت السجون غاصة بهم. وقسم البلاد كلها إلى ستة وثلاثين إقليمًا يسميها المصريون مقاطعات، ونصب على كل إقليم والياً ليكون مسئولاً عن جباية الضرائب الملكية، وعن إدارة إقليمه، وانتقى من بين رعيته أولئك الذين يمتازون بالقوة البدنية وكون منهم جيشاً كفاً لمشروعه العظيم، والواقع من الأمر أنه جند ٦٠٠,٠٠٠ راجل و ٢٤,٠٠٠ فارس. وجَهَّز ٢٧,٠٠٠ مركبة

حربية ووضع فرق هذا الجيش تحت قيادة أترابه، وكانوا قد أكتووا فعلا بنار الحرب، شديدي الولع منذ طفولتهم بالبطولة، يكون الحب الأخوي لمليكمهم ولبعضهم البعض، وكان عددهم يربو على ١٧٠٠ شخص، وأقطعهم جميعاً أבוד الأرض حتى يستطيعوا - وقد رتب لهم دخل كاف، وانتفت عنهم الحاجة - أن يتفرغوا لممارسة فنون الحرب. **٥٥** وبعد أن جهز جيشه سار أولاً ضد الأحباش الذين يسكنون جنوب مصر، وهزمهم واضطروهم إلى دفع جزية من الأبنوس والذهب والعاج، ثم أنفذ حملة مؤلفة من أربعمئة سفينة إلى البحر الأحمر<sup>(١)</sup>. فهو أول من ابتنى سفناً حربية من المصريين، واستولى على الجزائر الواقعة في تلك الجهات. أما في القارة نفسها فقد أخضع الشاطئ إلى الهند. أما هو فقد اشتق طريقه راجلاً على رأس جيشه وقهر كل آسيا. فهو لم يذهب إلى البلاد التي غزاها فيما بعد الإسكندر المقدوني فحسب، بل أوغل أيضاً في بعض الأقطار التي لم تطأها أقدام الإسكندر، فقد عبر نهر الكنج واجتاز بلاد الهند كلها إلى المحيط، وأوغل في القبائل الإسكيثية حتى أتى نهر التنايس Tanasis<sup>(٢)</sup> الذي يفصل بين آسيا وأوروبا. ويقال إن جماعة من المصريين تخلفوا في ذلك الحين بالقرب من بحر مايوتيس Maeotis<sup>(٣)</sup> وكونوا قبيلة الكولخييين<sup>(٤)</sup> ويسوقون الدليل

(١) يعني الخليج الفارسي

(٢) هو نهر الدون

(٣) هو بحر آروف

(٤) حدود بلادهم البحر الأسود في الغرب وجبال القوازق في الشمال، ومقاطعة جورجيا في الشرق وطرابيزون في الجنوب. ويرجح البعض أن الحضارة المصرية أثرت في الكولخييين

على أن هذه القبيلة من أصل مصرى، بأن عادة الختان تمارس عندها كما تمارس في مصر فهذه العادة تسود بين الجاليات المصرية التي تنزح عن مصر كما هو الحال عند اليهود.

وأدخل تحت نيره كذلك الإقليم الباقي من آسيا وأكثر جزائر الأرخيبيل ثم عبر البحر إلى أوروبا وأوغل في تراقيا كلها وهناك كاد أن يفقد جيشه لنفاد المؤن ووعورة البلاد. ولذلك فقد جعل من تراقيا حدود حملته وأقام أعمدة في كثير من البقاع التي أخضعها، وكانت هذه الأعمدة تحمل النقش الآتي مكتوباً بالحروف المصرية يسمونها مقدسة «سيسوسيس ملك الملوك، ورب الأرباب أخضع هذه البلاد بقوة سلاحه» وصور على الأعمدة صورة سوءة رجل بين القبائل المحبة للحرب، وسوءة أنثى بين القبائل المترهة الرعيدة، فقد رأى أن هذا العضو المميز للجنس سيظهر بجلاء الأجيال المقبلة طبيعة نفس كل هذه الشعوب، وأقام لنفسه في بعض المناطق تمثلاً من الحجر يصوره متدرعاً يحمل قوساً وسهاماً ورمحاً طوله أربع أذرع وأربع راحات، وهو طول سيسوسيس نفسه في الحقيقة. وعامل الشعوب المقهورة بالحسنى. وبعد أن ختم حملته في تسع سنوات أمر الشعوب المقهورة أن تحمل لمصر الهدايا كل عام كل بحسب قدرته. أما هو فبعد أن جمع أعداداً غفيرة جداً من الأسرى وكمية بالغة من أسلاب الحرب الأخرى، قفل راجعاً إلى وطنه وقد أنجز أعمالاً أعظم مما قام به أى ملك قبله. هذا إلى أنه زين جميع المعابد في مصر بالنصب والأسلاب الرائعة، وكافأ الجند الذين قاموا بأعمال مجيدة بالعطايا كل بحسب جدارته. وبالجملة، فلم

تكن نتيجة هذه الحملة أن جمع الجند الذين ساهموا بشجاعتهم في مشروع الملك ثروة طائلة، ورجعوا إلى أوطانهم منتصرين، فحسب، بل إن الخيرات من جميع الأنواع تدفقت على مصر بأسرها.

**٢٥** وبعد، فقد سرح جيشه وأعفاه من مشاق الحرب، وسمح للذين ساهموا في تلك الأعمال المجيدة أن يعيشوا حياة هنيئة متمتعين بالثروة التي اكتسبوها. أما هو وقد كان تواقاً للذكر الخالد، فقد أقام آثاراً عظيمة تروعك فكرتها كما تروعك المبالغ التي أنفقت عليها، فحقق بذلك المجد الخالد لنفسه، ودوام الرفاهية والأمن للمصريين. ولما كان همه الأول تمجيد الآلهة فقد ابتنى في كل مدينة في مصر معبداً للإله الذي كان سكان المدينة يقدسونه قبل سواه. ولم يستخدم المصريين في هذه الأعمال، بل أنجزها أسرى الحرب وحدهم، ولذلك أثبت على كل معبد نقشاً يقول « إنه لم ينصب في هذا العمل أحد من المصريين » وكان الأسرى البابليون غير قادرين على احتمال مشاق هذه الأعمال، فثاروا - فيما يقال - على الملك، واستولوا على موقع حصين على ضفة النهر، وشنوا الحرب على المصريين، وعاثوا فساداً في الإقليم المجاور. وأخيراً، استقروا في تلك المنطقة بعد أن صدر عنهم عفو عام وأطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلي بابلون. ويقال إنه لأسباب مماثلة أطلق اسم طرويا على المدينة التي ما زالت إلى يومنا هذا قائمة على ضفة النيل، ذلك أنه عندما ارتحل مينيلوس<sup>(١)</sup> Menelaus

(١) المأثور في القصة أن مينيلوس قضى ثمانى سنوات هائماً حول شواطئ البحر المتوسط قبل أن يصل هو وزوجته هيلينا إلى أسبرطة بعد حرب طروادة.

عن طروادة، وعبر البحر إلى مصر، وبصحبته جمع غفير من أسرى الحرب ثار عليه هؤلاء واستولوا على بعض المواقع وظلوا يشنون الحرب إلى أن تعهد لهم بالأمن والسلام، ثم أنشأوا مدينة أطلقوا عليها اسم موطنهم الأصلي عينه. ولست بغافل عن أن كتيزياس الأكنيدي<sup>(١)</sup> أورد رواية أخرى بأن هاتين المدينتين، إذ قال إن الذين ارتحلوا إلى مصر مع سميراميس Semiramis<sup>(٢)</sup> أنشأوهما وأطلقوا عليهما أسماء أوطانهم الأولى. ولكن حيث إنه من العسير أن نسوق الحقيقة بشأن هذه المسائل بدقة، فقد كان من الضروري أن نورد مختلف آراء المؤرخين السابقين حتى يتمكن القراء من إصابة محجة الصواب.

**٥٧** ومهما يكن من شيء فقد أقام سيسوسيس قلاعاً عظيمة نقل إليها جميع المدن التي لم يكن موقعها الطبيعي مرتفعاً، حتى يهيئ للناس والأنعام ملجأ أميناً في وقت الفيضان. واحتفر في كل الأرض فيما بين منف والبحر قنوات عديدة متفرعة على النهر حتى يتم نقل المحصول بسرعة ويسر، وحتى يتسنى للأقاليم كلها - باتصال الناس بعضهم ببعض - أن تنعم بحياة هادئة ويفيض من أسباب النعمة. وأهم ما في هذا الأمر أنه حسن البلد وجعلها بمنأى عن غزوات الأعداء فقد كان أغلب القطر المصري قبل هذا العهد مطية سهلة للخيل والعجلات، ولكن منذ ذلك الحين أصبح من الصعب على العدو أن يغزو لكثرة عدد

(١) عاش في أواخر القرن الخامس ق.م. وكتب تاريخ آشور وفارس

(٢) سميراميس وزوجها نينوس هما - كما جاء في الأساطير - اللذان أنشأ إمبراطورية نينوس أو نينوى.

القنوات المتفرعة على النهر. وحصن الجبهة المصرية الشرقية على طول الصحراء من الفرما إلى هليوبوليس، وهي مسافة ١٥٠٠ ستاد، ضد الغزوات المندفعة إليها من سوريا وبلاد العرب. وابتنى أيضاً سفينة من خشب الأرز طولها ثمانون ومائتا ذراع وجهها الخارجي مذهب، والداخلي مطلي بالفضة، وقد أرصدت هذه السفينة ومسلتان من الحجر الصلد نقش عليها ما ينبئ عن عظمة قوته. ووفرة دخله وعدد الشعوب التي أخضعها للإله المقدس في طيبة. وأقام في منف في معبد الإله هيفايستوس تمثالين كل منهما من حجر واحد لنفسه ولزوجه طول كل منهما ثلاثون ذراعاً<sup>(١)</sup>، وتمثيل أخرى لأبنائه طول كل منهما عشرون ذراعاً. وقد كانت إقامتها كلها للسبب الآتي:

بعد أن قفل سيسوسيس راجعاً إلى مصر من حملته العظيمة، وكان يقضى وقته بالقرب من الفرما، حدث أن دبر له أخوه مؤامرة بينما كان يحتفى به وبزوجه وأولاده. ذلك أنه بعد أن سكنوا إلى مخادعهم وقد لعبت الخمر برءوسهم وضع أخوه كميات كبيرة من الغاب الجاف - وكان قد جهزها من قبل - حول خيمة الملك، وأشعل فيها النار، فلما اندلعت النيران فجأه سعى الموكلون بخدمة الملك كسالى لتجذته، فقد كانوا سكارى. ولكن سيسوسيس رفع كلتا يديه إلى السماء وصلى للآلهة لتنتقذ زوجه وأولاده، وانطلق بين أسننة النيران سالماً. فلما نجا بهذه الطريقة العجيبة قرب النذر تمجيداً للآلهة جميعاً كما ذكرنا آنفاً وبخاصة هيفايستوس لأنه كان سبباً في نجاته.

(١) يوجد بالقرب من منف تمثالان عظيمان لرسيس الثاني، طول أكبرهما اثنان وأربعون قدماً أو يوازي الثلاثين ذراعاً التي يذكرها ديودور وهيرودوت ١١٠،٢

٥٥

وعلى كثرة ما ينسب إلى سيسوسيس من عظيم الأعمال، فإن أجلها قدرًا فيما يبدو لنا تصرفه مع أولى الأمر في الشعوب المقهورة في روحاته وغدواته. فإن الملوك الذين أتيح لهم أن يبقوا على عروشهم في الدول المغلوبة والفئة التي بلغت فيها أرفع المناصب كانوا يمثلون إلى مصر في أوقات معينة حاملين إليه الهدايا. وكان سيسوسيس يرحب بهم ويفيض عليهم كل صنوف التكريم، ويودعهم باحترام زائد. ولكنه حينما كان يزعم زيارة معبد أو مدينة، كان يطلق الخيل من مركبته ويضع تحت النير بدلًا منها أربعة ملوك بالتناوب، معتقدًا أنه يظهر للعالم بذلك أنه لم يعد من ينازعه قصب السبق في البطولة، وقد قهر أقوى الملوك وأبعدهم شهرة في الشجاعة. ويبدو أن هذا الملك فاق جميع من سبقوه من الحكماء في المجد الحربي، وعظمة وكثرة ما أقام في مصر للآلهة من معابد، وما ابتنى من منشآت. وبعد أن حكم ثلاثًا وثلاثين سنة ترك الحياة مختارًا بعد أن زایلته نعمة البصر. ولم يكسبه هذا العمل إعجاب الكهنة فحسب. بل أكسبه إعجاب المصريين كلهم بوجه عام. فقد رأوا أنه اختتم حياته ختامًا يليق بما تجلى في أعماله من سمو النفس، ولقد زادت شهرة سيسوسيس على مر السنين حتى إنه عندما وقعت مصر في قبضة فارس، وأراد دارا أبو أجزركسيس أن يقيم نفسه تمثالًا في منف أمام تمثال سيسوسيس، اعترض الكاهن الأعظم على هذا الاقتراح عندما عرضت المسألة على مجمع الكهنة، مشيرًا إلى أن دارا لم يقم بعد بما يفوق أعمال سيسوسيس، ولم يغضب الملك لذلك

مطلقاً، بل سر لهذه الصراحة في القول، ووعده بأنه سيعمل على ألا يكون لاحقاً لسيوسيس في أمر ما إذا قسم له أن يبلغ ما بلغه من العمر. وطلب إلى الكاهن الأعظم أن يزن أعمال كل منهما في نفس العمر مبيناً أن ذلك أعدل محك لعظمتها، ولنقنع الآن بما أسلفنا من قول  
عند سيوسيس

٥٩ وورث ابنه ملك أبيه واتخذ اسمه، ولكنه لم يقم بعمل حربي أو غير حربي يستحق الذكر، وانتابته محنة عظيمة إذ فقد بصره، إما لمشابهة في تركيب الجسم بينه وبين أبيه أو كما يقول البعض لكفره بالنهر، فقد ألقى سهمه في قلب التيار المائي حينما طوحت به الأمواج العاصفة. وقد اضطرت محنة العمى هذه إلى أن يلجأ إلى المعونة الإلهية محاولاً لمدة طويلة أن يسترضى الآلهة بالأضاحى والقربان المتعددة، ولكنه لم يلق رضا. وفي السنة العاشرة، أمره الوحي أن يمجده إله هليوبوليس وأن يغسل وجهه ببول امرأة لم تتصل قط برجل غير زوجها. فاستعان أول الأمر بزوجه، ثم جرب نساء أخريات، لم يجد منهن واحدة طاهرة إلا زوج أحد البستانيين، فتزوج منها بعد أن استرد بصره، وحرقت الأخريات أحياء في إحدى القرى، وقد أطلق عليه المصريون - إشارة إلى هذه الحادثة - اسم «الأرض المقدسة»<sup>(١)</sup>. وأقام الملك - انصياعاً لأمر الوحي وعرفاناً بصنيع إله هليوبوليس - مسلتين من حجر واحد سمك كل منهما ثمانى أذرع وطولها مائة ذراع<sup>(٢)</sup>.

(١) القصة واردة في هيرودوت ٢، ١١١ باختلاف يسير.

(٢) لا تزال إحدهما قائمة إلى الآن، وهي من حجر الجرانيت وارتفاعها ٦٦ قدماً

٦٥

وبعد ذلك الملك لم يقم الكثيرون ممن خلفوه على العرش بعمل واحد يستحق الذكر. وبعد أجيال عديدة تولى أمازيس Amasis الملك، فساس الرعية بالعنف، وعاقب الكثيرين ظلماً، وحرّم عدداً غيراً من ممتلكاتهم، وعامل رعاياه كلهم بازدراء وعتو. ولقد احتمل الشعب المتألم زماناً فلم يكن في مكنته أن يحمي نفسه ضد أصحاب السلطة الكبرى. ولكن لما غزا أكتيزانيس Actisanes<sup>(١)</sup> ملك الحبشة مصر وجد غيظ المصريين منفرجاً، فثارت غالبيتهم ضد أمازيس، فهزم بسهولة ووقعت مصر تحت حكم الأحباش، ولم يطر هذا النجاح بلب أكتيزانيس، فعامل الشعب المقهور بالحسنى، وقام بعمل جليل بشأن اللصوص، فلم يحكم بالموت على المذنبين ولا هو أطلق سراحهم دون عقاب البتة، بل جمع من كل أقاليم مصر المتهمين باقتراف الجرائم، وبعد أن قام بتحريات دقيقة جمع كل من أدينوا وجدع أنوفهم وأبعدهم إلى حدود الصحراء، وأنشأ لهم مدينة سميت رينوكولورا أي «مجدوعة الأنف» نسبة إلى سكانها. وهي تقع على الحدود بين مصر وسوريا غير بعيد من ساحل البحر، محرومة من كل أسباب الحياة الإنسانية تقريباً، وهي محاطة بمنطقة مغطاة بطبقة سميكة من الملح، ولا يوجد داخل حدود المدينة إلا قدر قليل من الماء في الآبار غير نقي ومر المذاق. ولقد أبعد المجرمين إلى هذه المنطقة حتى لا يمارسوا من ناحية الأعمال التي درجوا على ممارستها طوال حياتهم، فينتهكون حرمة الأبرياء، وحتى يظلوا من

(١) يرى البعض أن أكتيزانيس هو الملك سبا أو سباكا ٧١٢-٧٠٠ ق.م وهو أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

ناحية أخرى متديزين في صلاتهم بغيرهم من الناس. وبالرغم من أنهم كانوا منبوذين في صحراء عديمة الموارد تقريباً فقد اهتموا إلى طريقة لكسب قوتهم تناسب ما هم فيه من فقر. فقد اضطرتهم الطبيعة إلى طرق كل السبل الممكنة لمواجهة الإملاق. فقطعوا الغاب في المنطقة المجاورة واستطاعوا بشقه أن يصنعوا منه شباكاً طويلة جداً، نصبوها على الشاطئ على مسافة أميال عديدة لاصطياد السمان الذي يطير في أسراب كبيرة من ناحية البحر، فاصطادوه بكميات كبيرة أقامت أودهم.

وبموت هذا الملك استعاد المصريون السلطة، ونصبوا مندیس Mendius<sup>(١)</sup> ملكاً عليهم، وهو مصرى الأصل، ويسميه البعض ماروس Marrus. ولم يقم هذا الملك بعمل حربى على الإطلاق، ولكنه شيد البناء الذى يعرف باسم اللابرنث « قصر التيه » قبراً له، وهو لا يدعو إلى العجب لضخامته بل لدقة صناعته التى لا تحاكى، فإن من يلججه لا يستطيع أن يجد طريقه إلى الخارج بسهولة إلا إذا كان له دليل محنك جداً. ويحكى أن ديدالوس<sup>(٢)</sup> Daedalus أبحر إلى مصر، وأعجب بما تجلى فى هذا البناء من المهارة الفنية، فابتنى لمينوس Minos ملك أقریطش تيهاً يشبه التيه المصرى، وأودع فيه الحيوان المسمى مينوطور Minotaurus ولكن التيه الأقریطشى لم يبق له وجود مطلقاً، ويعزى إلى هذا أن أحد الملوك قد قوّضه من أساسه، أو إلى

(١) يسميه إسترابون مرة إيمانديس ومرة إيسمانديس.

(٢) شخصية أسطورية تمثل عند اليونانيين بدء تطور فنى النحت والعمارة. والاسم فى اليونانية يعنى "المانع الحاذق"

أن الزمان عدا عليه. أما التيه المصري فما زال إلى يومنا هذا محتفظاً  
بكامل رونقه.

٦٧ وبعد موت هذا الملك ظلت البلاد بلا حاكم خمسة أجيال،  
تولى الملك بعده رجل نكرة سماه المصريون كيتيس<sup>(١)</sup> Cetes ويعرف عند  
اليونان باسم بروتيوس Proteus كان معاصراً للحروب الطروادية. وكانت  
قد تواترت الأنباء بأنه كان متفهماً في علم الأرواح، فقد كان في قدرته أن  
ينسخ نفسه حيواناً مرة وأخرى شجرة أو ناراً أو أى شيء آخر. وتتفق مع  
هذه الرواية رواية الكهنة القائلة بأن الملك اكتسب معرفته بهذه الأمور  
من اتصاله الوثيق الدائم بعلماء الهيئة. هذا في حين أن قصة نسخ شكله  
هذه نشأت عند اليونان من تقليد متوارث لدى المصريين، فقد كان من  
عادة ملوك مصر أن يضعوا على رؤوسهم رأس أسد أو ثوراً أو ثعباناً بمثابة  
رمز لسلطانهم. وقد يضعون أحياناً على رؤوسهم شجرة أو ناراً وأحياناً  
يضعون شيئاً من البخور الذكي. وهم لا يتخذونها للزينة فحسب، بل  
ليلقوا كذلك الرعب والرهبه في قلوب الناس. وبعد موت بروتيوس خلفه  
ابنه ريمفيس Rhemphis<sup>(٢)</sup> على العرش، فقد قضى حياته كلها مولياً  
همه لتنمية دخله وجمع المال من جميع مختلف المصادر ولم ينفق -  
لخسة نفسه وجشع طبعه - شيئاً على قرابين الآلهة أو في البر بالإنسان.  
ولما كان مديراً حاذقاً لشئون المال أكثر منه ملكاً، فبدلاً من أن يخلف

(١) لا يعرف عن كيتيس هذا شيء. أما بروتيوس فيظهر أنه تحريف لقب مصري، وهو في  
الأساطير اليونانية ملك أرجوس.

(٢) ريمفيس هو رمسيس الثالث ويسميه هيرودوت رامسينيتوس ٣، ١٢١.

ذكرى بطولة. خلف مبالغ من المال أكبر مما خلفه أى ملك قبله. فقد أثر عنه أنه جمع حوالى ٤٠٠,٠٠٠ طالنت من الفضة والذهب.

وبعد موته خلفه على العرش مدى سبعة أجيال ملوك خاملون **٦٣** صرفوا همهم إلى المتعة والترف ولذلك لم تحفظ لنا سجلات الكهنة إشارة واحدة إلى أثر من آثارهم، أو عمل ما من أعمالهم يستحق الذكر، اللهم إلا فيما يتعلق بالملك نيلوس Nileus الذى سُمى النهر باسمه، وكان النهر يدعى من قبل إيجيبتوس Aegyptus. فقد احتقر هذا عدداً كبيراً من القنوات فى مواضع صالحة، واثبت بمجهودات مختلفة حرصه على أن يزيد من فائدة النهر، ومن هنا أطلق على النهر اسمه الحالى.

وثامن هؤلاء الملوك خميس Chemmis<sup>(١)</sup> من منف وقد حكم خمسين عاماً وابتنى أكبر الأهرام الثلاثة التى تعد من عجائب الدنيا السبع. وهى تقع فى الجانب المتاخم لليبيا على بعد ١٢٠ ستادا من منف وه ٤ ستادا من النهر، وهى تملأ نفس الرائي عجباً ودهشة لضخامتها ودقة صناعتها. وأكبرها مربع القاعدة طول كل ضلع من أضلاعها سبعة بلثرونات وارتفاعه أكثر من ستة بلثرونات، وتندرج مساحته فى الصغر حتى تصل إلى القمة التى طول كل ضلع فيها ست أذرع. والبناء كله مشيد من حجر صلد يصعب صقله ولكنه يبقى إلى الأبد. فما زالت الأحجار ثابتة فى مواضعها الأصلية حافظة لكيان البناء

(١) هو خوفو ويسمى هيرودوت كيويس ١٢٤،٣، ولقد وقع ديودور فى نفس الخطأ الذى وقع فيه هيرودوت فجعل بناء الأهرام الذى تم فى الأسرة الرابعة بعد رمسيس الثالث وهو من فراغة الأسرة العشرين.

كله من التهدم، مع أنه قد انقضى على بنائه ما لا يقل عن ألف عام كما يقول البعض، أو أكثر من أربعمائة وثلاثة آلاف عام كما يقول البعض الآخر. ويقال إن الأحجار نقلت من مسافة كبيرة من بلاد العرب<sup>(١)</sup>. وأن عملية البناء قد أجريت بوساطة تلال من الرمل لأن الروافع لم تكن قد اكتشفت بعد في تلك الأيام. وأغرب ما في الأمر أنه بالرغم من أن عملية البناء قد أجريت في منطقة رملية كلها، فليس هناك من أثر للتلال، أو لعملية صقل الأحجار حتى ليبدو كأن البناء لم تقمه تدريجياً يد الإنسان بل كأن أحد الآلهة أقامه دفعة واحدة وسط الرمال المحيطة به. ويحاول بعض المصريين أن يصوروا هذا الأمر كأنه إحدى العجائب، فيقولون إن التلال صنعت من الملح والنظرون ولما أطلقت مياه النهر عليها أذابتها ومحتها نهائياً دون أن يكون للإنسان ضلع في الأمر. والواقع أن هذه الرواية عارية عن الصحة تماماً، فإن العدد العظيم من العمال الذين أقاموا التلال، أرجعوا بأنفسهم إلى ما كانت عليه من قبل فإن ستين وثلثمائة ألف رجل كانوا يعملون فيما يقال في هذا البناء، وقد أنجزوه بشق الأنفس في عشرين عاماً.

**٦٤** ولما مات هذا الملك خلفه على العرش أخوه كفرن<sup>(٢)</sup> Kephren وحكم ستاً وخمسين سنة، ويذهب البعض إلى أن الذي تولى الملك بعد خوفو ليس أخاه بل ابنه خابرياس Chabryas. والإجماع

(١) بلاد العرب تعنى كل المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، ولكن الأرجح أن أحجار الأهرام اقتطعت من المنطقة المحيطة بها.

(٢) هو خفرع كما ورد في النقوش. ويسميه هيرودوت ٢، ١٢٧ كفرن كذلك.

على أن خليفة خوفو انتهج سياسته وابتنى الهرم الثانى وهو يشبه الأول من حيث المهارة الفنية ولكنه يقل عنه حجماً إذ إن طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ستاد واحد، ويدور أحد نقوش الهرم الأكبر حول المبالغ التى أنفقت فى بنائه وهو يظهرنا على أن أكثر من ستمائة وألف طالنت أنفقت على الخضراوات والطهو اللازم للعمال. أما الهرم الثانى فخال من النقوش وبه درج محفور فى أحد جوانبه، وبالرغم من أن هذين الملكين قد ابتنيا الهرمين ليدفنا فيهما، فلم يحدث أن دفن أحدهما فى هرمه، ذلك بأن المشاق التى تحملها القوم فى بنائهما، وقسوة الملكين وعنفهما، ألبيت الشعب ضدّهما فألى أن يمزق جثتيهما إرباً، وأن يلقى فى غيطه خارج القبور، ولذلك أوصى كل منهما أهله بدفنه عند موته سرّاً فى مكان مجهول.

تولى الملك بعد ذلك ميكيرينوس Mycerinus الذى يسميه البعض منقرع Mwncherinus وهو ابن بانى الهرم الأكبر، ولقد شرع فى بناء هرم ثالث ولكنه مات قبل أن يتمه، وجعل طول كل ضلع من أضلاعه قاعدته ثلاثمائة قدم وابتنى خمس عشرة طبقة من الواجهة الخارجية من الحجر الداكن<sup>(١)</sup> اللون الشبيه بأحجار طيبة. أما باقى الهرم فقد ابتناه من أحجار كالتى استعملت فى بناء الهرمين الآخريين. وهو يفوقهما جدّاً فى دقة صناعته وقيمة أحجاره، ولو أنه يقل حجماً عنهما كثيراً. ويحدثنا النقش المكتوب على الجانب الشمالى منه أن بانیه منقرع. ولم يرض عن قسوة أسلافه واجتهد فى أن يحيا حياة فاضلة يصرّفها فى

(١) الطبقات السفلى من الهرم الثالث من حجر الجرانيت الأحمر

خير شعبه، ودأب على القيام بالأعمال التي اعتقد أنها تكسبه عطف شعبه. ويقولون إنه أنفق مبالغ طائلة من المال على تنظيم القضاء، بإذلا هبات كبيرة للرجال الفضلاء الذين رأى أنهم لم يلقوا جزاء عادلا على يد القضاء.

وهناك ثلاث أهرام أخر طول كل ضلع من أضلاعها مائة قدم. وهي تشبه الثلاث السابقة في شكلها وليس في حجمها. ويقال إن الملوك الثلاثة السابقين ابتنوها لأزواجهم. ولقد اتفقت الآراء على أن الأهرام لم تحظ في مصر بذلك المركز الممتاز لضخامة بنائها وباهظ تكاليفها فحسب، بل لدقة صناعة بناتها أيضا. ومهندسو المشروع أولى بالإعجاب- فيما يقال - من الملوك الذين دبروا المال لإنجازه، لأن المهندسين استنفدوا في إنجاز المشروع أرواحهم وهممهم، بينما استغل الملوك الأموال التي ورثوها ومجهودات الآخرين. ولقد تضاربت الآراء بشأن الأهرام بين سكان البلاد كما تضاربت بين المؤرخين. فيعزو البعض بناءها إلى الملوك الذين ذكرتهم بينما يعزوه غيرهم إلى ملوك آخرين. فيقولون مثلا إن الهرم الأكبر ابتناه أرميوس Armaeus والثاني أموزيس Amosis والثالث إيناروس Inaros ويذهب البعض إلى أن الهرم الأخير كان قبراً للمحظية رودوبيس<sup>(١)</sup> Rhobopis. فقد تواترت الرواية أن بعض حكام الأقاليم كانوا يهونونها وأنهم اشتركوا في إقامة هذا البناء مدفوعين بغرامهم بها.

(١) رودوبيس معناها حمراء الوجنتين وهي كنية غانية من غوانى نوقراطيس خلبت لب خاراكوس أخى الشاعرة سافو، فنددت بها.

**٦٥** ارتقى العرش بعد هؤلاء الملك بوخوريس<sup>(١)</sup> Bocchoris وكان زرى الهيئة جداً، ولكنه فات جميع من سبقه من الملوك فى حكمته. وبعد زمن طويل ارتقى عرش مصر سباكون Sabacon وهو حبشى الأصل ولو أنه بز أسلافه كثيراً فى التقوى والفضل. وقد نستشهد على طيبة قلبه بأنه ألغى أشد عقوبات القانون ونعنى بها عقوبة الموت، فبدلاً من أن ينفذ حكم الموت فى المدانين، اضطرهم إلى أن يقوموا بأعمال عامة فى المدن مكبلين. وكذلك أقام جسوراً عديدة واحترف قنوات كثيرة مفيدة، فقد رأى أن يخفف من قسوة العقوبة على من حكم عليهم بها. وأن يضمن للمدن أعمالاً مفيدة بدلاً من العقوبة عديمة الفائدة. ويمكن أن نستدل على مبلغ تقواه من الرؤى التى عرضت له، ومن قصة تنازله عن العرش، فقد رأى فى منامه كأن إله طيبة ينبأه بأنه لن يتاح له أن يستوى على عرش مصر فى هناة أو لأمد طويل إلا إذا شطر أجسام جميع الكهنة شطرين، ومر مع حاشيته فى وسطها. ولما تكرر هذا الحلم استدعى الكهنة من جميع الأقاليم وقال لهم إن بقاءه فى البلاد قد أحفظ الإله وإلا ما أمره فى الحلم بشىء كهذا، ثم قال إنه يفضل أن ينزح عن البلاد دون أن يلوث نفسه ويؤثر أن يلقي بحياته فى يد القدر على أن يثير حفيظة ربه، ويلوث نفسه بهذه الجريمة الشنعاء لقاء استمراره فى حكم مصر. وأخيراً سلم مقاليد الحكم لأهل البلاد وقفل راجعاً إلى الحبشة<sup>(٢)</sup>.

(١) هو بوكترانف حكم مصر من ٧٣٦ - ٧١٢ تقريباً، وهو ثانى ملوك الأسرة الرابعة والعشرين.

(٢) قصة تنازل آخر ملوك الأحباش عن حكم مصر، واردة فى النقوش القديمة ولكن الواقع أن تنازله كان تراجعاً أمام زحف الأشوريين.

**٦٦** وظل العرش شاغراً طيلة السنتين التاليتين، ولما مال العامة إلى الفتن والحروب الأهلية تحالف أقوى اثني عشر زعيماً، واجتمعوا في منفٍ وعقدوا معاهدة ليرعوا الميثاق والوثام فيما بينهم ونصبوا أنفسهم ملوكاً. وحكموا البلاد وفقاً لعهودهم ومواثيقهم، وحافظوا على صلوات الود فيما بينهم مدة خمسة عشر عاماً. ثم شرعوا في بناء قبر مشترك لهم، فقد رأوا أنه كما رعوا الود فيما بينهم على قيد الحياة واكتسبوا مجداً متكافئاً يجب أن ترقد أجسادهم بعد الموت كذلك في صعيد واحد، وأن يقوم الضريح بعد إتمامه شاهداً جامعاً على مجد الذين يرقدون فيه. ولقد دفعتهم شدة حرصهم على بلوغ هذه الغاية إلى بذل أقصى الجهد ليفوق هذا البناء في ضخامته كل ما سبقه من الآثار، واختاروا له موقعاً في الصحراء الليبية<sup>(١)</sup> عند مدخل بحيرة موريس وشيدوا قبرهم بأحسن أنواع الحجارة. وقد اختطوه مربع الشكل طول كل ضلع من أضلاعه ستاد واحد، وزينوه بالزخارف وسائر الأعمال الفنية حتى لم يدعوا لخلفهم<sup>(٢)</sup> مجالاً لمنافستهم، نجد فيه بعد أن نعبر السور الخارجي بهواً تحيط به العمدة، أربعون منها في كل جانب، وسقفه منحوت من حجر واحد، مزخرف بتجاويف هندسية، ورسومات مختلفة، وباليهو كذلك تذكارات لمسقط رأس ملك من الملوك، وإن ما فيه من معابد وطقوس، كلها مصورة ببراعة في رسوم رائعة. ولقد كان تصميم

(١) أي في الجانب الغربي من النيل.

(٢) هذا هو التيه المذكور في الفصل ٦١ وقد ابتناه منمنحت الثالث من الأسرة الثانية عشرة.

البناء الذى وصفه هؤلاء الملوك باهظ النفقات وكبير الحجم - فيما يقال - إلى حد أنه لو لم يتركوا العرش قبل تمامه لقطعوا على غيرهم طريق منافستهم فى تشييد الآثار، ولكن حدث أنه بعد أن حكم هؤلاء الملوك مصر مدى خمسة عشر عاماً انتقلت السلطة إلى يد رجل واحد، للأسباب التالية: زود أبسماتيك Psammetichus<sup>(١)</sup> السائسى - وهو أحد الملوك الاثنى عشر، وصاحب السلطان فى المناطق المتاخمة للبحر - جميع التجار بالبضائع، وخصوصاً الفينيقيين واليونانيين منهم. فتخلص بهذه الطريقة من منتوجات بلاده بريح، واستورد عوضاً عنها منتوجات البلاد الأخرى، فلم يربح ثروة طائلة فحسب، بل كسب كذلك صداقة الشعوب وحكامها. فحسده الملوك الآخرون - فيما يقال - من أجل ذلك، وشنوا عليه الحرب، ولكن بعض المؤرخين المتقدمين يروون قصة فحواها أن الوحي أنبأ هؤلاء القادة بأن أول من يسكب منهم قربان الخمر للإله فى منف فى إناء برونزى سيصبح سيد مصر كلها، ولما ذهب أحد الكهنة ليحضر لهم من المعبد اثنى عشر إناء ذهبياً نزع أبسماتيك خوذته وسكب منها القربان. وبالرغم من أن سلوكه هذا قد أثار شكوك زملائه فى الحكم إلا إنهم لم يشاءوا أن يقتلوه وألزموه النفى وأن يقضى بقية حياته فى المستنقعات المتاخمة للبحر. وسواء قام النزاع من جراء ذلك أم غيرة وحسداً كما ذكرناه آنفاً، فالواقع من الأمر أن أبسماتيك استدعى الجنود المرتزقة من قارية Caria وأيونية Ionia وانتصر على خصومه فى المعركة التى دارت رحاها بالقرب من

(١) حكم أبسماتيك من سنة ٦٦٣ إلى سنة ٦٠٩ ق.م.

المدينة التي تدعى مومفيس Momemphis وقتل بعض الملوك الذين تصدوا له ، وطارد البعض الآخر إلى ليبيا. ولم يصبح لهم بعد من الطول ما ينازعون به السلطان.

٦٧ وبعد أن وطد أسماتيك سلطانه في المملكة بأسرها، ابنتى البهو الخارجى فى الجهة الشرقية من معبد منف، وسور المحراب، واستخدم عوضاً عن الأعمدة تماثيل ضخمة طول الواحد منها اثنا عشر ذراعاً. وفضلاً عن المرتبات التى وعد المرتزقة بها، فقد أجزل لهم العطاء وأفرد المنطقة التى تسمى «المعسكر»<sup>(١)</sup> لسكانهم، وأقطعهم مساحات واسعة من الأرض إلى الجنوب قليلا من فرع النيل البيلوزى، ولما تولى أمازيس الملك بعد ذلك التاريخ بسنين عديدة نقلهم من ذلك الموضع وأسكنهم منف. ولما كان السلطان قد استقام لأبسماتيك بوساطة هؤلاء المرتزقة فقد آثرهم على غيرهم بالقيام على شؤون الحكم، واستمر على انتهاج سياسة استخدام قوات كبيرة من الجنود المرتزقة. وحدث أنه عندما قام بحملة إلى سوريا، أكبر من شأن المرتزقة، بأن عهد إليهم بالطعام، وجعل موضعهم فى الجناح الأيمن، أما القوات المصرية فقد صغر شأنها وجعل مكانها الجناح الأيسر من الفيلق. فأحفظت هذه الإهانة المصريين وكان عددهم يربو على المائتى ألف، فشقوا عصا الطاعة، وزحفوا على بلاد الحبشة عاقدين العزم على أن يفتحوا لأنفسهم بلاداً لهم وحدهم، فأوفد الملك أولاً بعض قواده ليعتذروا لهم عما لحق بهم من إهانة، فلم يأبهوا برسله، فاتبعهم بنفسه فى جمهرة

(١) اكتشف فلنדרز بترى أحد هذه المعسكرات فى تل دفنة غرب القنطرة.

من أصدقائه في زوارق. وبينما كانوا مصعدين في النيل، على وشك عبور الحدود المصرية، توسل إليهم أن يثنوا عزمهم، مذكراً إياهم بمعابدهم ومسقط رؤوسهم، وأزواجهم وأطفالهم، فرفعوا عقيرتهم جميعاً صائحين، ضاربين دروعهم بحرابهم، وقالوا ما دام سلاحهم طوع أمرهم فسيجدون وطناً بسهولة، ثم رفعوا أريدتهم وأشاروا إلى سوءاتهم قائلين ما دامت هذه لنا فلن نعدم الزوجات والأبناء. وبهذه الروح العالية، مزدين ما يضعه الآخرون في المكان الأرفع من الأهمية، استولوا على الجزء الأكبر من بلاد الحبشة، واحتصوا أنفسهم بجزء كبير توطنوا به. ولقد غضب أبسماتيك لهذا المسلك أشد الغضب، ولكنه نظم الأمور في مصر، وبذل عنايته في تنمية الدخل الملكي وعقد محالفة مع أثينا وبعض المدن اليونانية الأخرى، وأحسن إلى الأجانب الذين نزحوا إلى مصر للإقامة فيها بمحض رغبتهم، ولما كان شديد الإعجاب بالثقافة اليونانية فقد نشأ أبناءه تنشئة يونانية. وبالجملة، فقد كان أول ملك فتح كل<sup>(١)</sup> أسواق مصر للشعوب الأجنبية. وضمن للأجانب النازحين إلى مصر عبر البحار غاية الأمن. وقد حرم أسلافه من الملوك دخول مصر على الأجانب بأن قتلوا بعض النازحين إليها واستعبدوا البعض الآخر. ولقد كان عدم ترحيب المصريين بالأجانب سبباً في أن صار ضلال بوسيريس مضغة أفواه اليونانيين فلم يراعوا جانب الحق فيما

(١) يرى بعض النقاد أن النص يجب أن يتبع هنا فنقول «باقي» أسواق مصر، أي إن أبسماتيك فتح أولاً الأسواق التي كانت تحت سيطرته ثم لما صار حاكماً فتح للأجانب باقي أسواق البلاد.

وصفوا من ضلاله، بل بولغ فيه إلى حد الخرافة لاستفحال الفوضى في هذه لبلاد.

**٢٨** وبعد أربعة أجيال من حكم أبسماتيك تولى أبريس<sup>(١)</sup> Apries الملك مدة اثنين وعشرين عاماً. وزحف على قبرص وفينيقية بقوات برية وبحرية كبيرة، فأخذ صيدا عنوة، وألقى الرعب في المدن الفينيقية الأخرى فوقعت في يده. وبعد أن هزم القبرصيين والفينيقيين في موقعة بحرية كبيرة غنم أسلاباً كثيرة ورجع إلى مصر، ثم أنفذ حملة كبيرة من بنى وطنه إلى طرابلس وبرقة. ولقد فقد الجزء الأكبر منها وشق الذين نجوا عصا الطاعة له وثاروا عليه لاعتقادهم أنه دبر هذه الحملة بغية القضاء عليهم حتى يكون أكثر اطمئناناً في حكم سائر المصريين. فبعث إليهم الملك بأمازيس<sup>(٢)</sup> أحد أعيان المصريين رسولا، ولكن هذا لم يعبأ بما أوصى به الملك من عقد صلح مع الثوار، بل على العكس شجعهم على التمادى في العصيان، واشترك في الثورة، فانتخب هو نفسه ملكا، وبعد زمن غير طويل، انضم سائر المصريين إلى الثوار، فاضطر الملك إبريس، وقد تملكته الحيرة، إلى أن يركن إلى المرتزقة وكان عددهم ثلاثين ألف رجل تقريبا. ووقعت المعركة بينهم بالقرب من قرية مارية وكان النصر فيها حليف المصريين، وأسر الملك أبريس وقتل شنقا، أما أمازيس فقد نظم شئون الملك على الوجه الذي رآه مرضيا، وحكم المصريين وفقا للقوانين، فنال تأييدا عظيما، وغزا مدن قبرص،

(١) يرجع الكثيرون أنه فرعون خفرع المذكور في التوراة في إرميا ٣٧، ٥ و٤٤، ٣٠.

(٢) أحبس الثاني مؤسس الأسرة السادسة والعشرين حكم مصر من ٥٦٩ - ٥٢٦.

وزين كثيراً من المعابد بنصب جديرة بالذكر. ولقى حتفه بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة حين زحف قمبيز ملك فارس على مصر في السنة الثالثة من الالمبياد الثالث والستين الذي فاز فيه في سباق الأستاديون<sup>(١)</sup> بارمينيديس Parmenides من أهل قمارينة Camarina.

**٦٩** الآن، وقد ألممنا إلمامة مرضية بأعمال ملوك مصر منذ أقدم العصور إلى موت أمازيس فسنعرج إلى البقية الباقية، وسنسردها في سياقها التاريخي. وسنتحدث الآن عن عادات المصريين باختصار مقتصرين منها على أشدها غرابة وأعظمها فائدة للقارئ. فكثير من العادات التي نشأت في مصر، لم تنل تأييد أهل البلاد فحسب، بل حظت بإعجاب اليونانيين الشديد، ولهذا كان أعظم من امتازوا بالتفوق الذهني شديدي الحرص على زيارة مصر ليتعلموا قوانينها ونظمها التي رأوها جديرة بالدرس. فبالرغم من الصعوبة التي كان الأجانب يلاقونها في زيارة البلاد في العصور المتقدمة لما أسلفنا ذكره من الأسباب، فقد حرص على زيارتها من القدماء أوروبفوس والشاعر هوميروس ومن المحدثين فيثاغوراس Pythagoras من أهل سامس Samos والمشرع سولون Solon وكثير غيرهم. ويدعى المصريون أنهم أول من عرف الحروف الهجائية، ورصد النجوم. هذا إلى أنهم اكتشفوا النظريات الهندسية، وأغلب الفنون، وسنوا أقوم الشرائع. ويقولون إن أقطع دليل على صحة ذلك أن مصر يحكمها منذ أكثر من سبعمائة وأربعة آلاف عام ملوك جلهم من أبناء البلاد، وأنها كانت أكثر بلاد المعمورة خصوبة،

(١) مباراة في السباق جرياً لمسافة ٦٠٦,٧٥ قدما وتعقد في أولمبيا.

فلو لم يلتزم سكان البلاد أحسن التقاليد والقوانين ولم ينتجها أصح سبل التربية والتعليم لما كان الأمر كذلك فيما يزعمون. وسنضرب صفحاً عما لفق هيرودوت<sup>(١)</sup> وبعض المؤرخين الآخرين عن مصر، فهم عوضاً عن التزام الحقيقة، وآثروا عامدين الإغراب وابتكار الأقايص لتسليّة القارئ. وسنسرّد هنا ما احتفظ به الكهنة المصريون في سجلاتهم من روايات وقد محصناها بدقة.

٧٥ فملوك المصريين لا يعيشون أولاً على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى، فيعملون ما يشاءون تبعاً لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم، لا في حياتهم العامة فحسب، بل في حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك. فلم يكن للملك بين خدمه عبد واحد مشترى أو مؤد، بل كانوا جميعاً من أبناء أشهر الكهنة، وقد جاؤا العشرين عمراً، وتلقوا أعلى ثقافة في البلاد. وهكذا لا يتاح للملك وقد حُف به أنبل الرجال للعناية ببدنه، وملازمته طوال النهار والليل، أن يأتي أعمالاً وضيعة. فما تمادى سلطان في الغواية إلا كان له من وليجته من يقوم على إرضاء شهواته. وكانت ساعات النهار والليل مرتبة بحيث كان على الملك أن يعمل في الوقت المخصص بالضبط ما يفرضه القانون لا ما تدفعه إليه نفسه. فقد كان عليه أولاً عندما يوقظ في الصباح المبكر، أن يتسلم الكتب التي أرسلت إليه من جميع الجهات، حتى يستطيع أن ينجز على الوجه الأكمل جميع أعماله ومهامه، ويكون على علم تام بكل ما يحدث

(١) قرظ ديودور هيرودوت في الفصل السابع والثلاثين.

فى جميع أنحاء المملكة، وعليه بعد ذلك أن يستحم، وأن يلبس بزة فاخرة، ويزين بالأنواط الملكية، ثم يقرب القرابين للآلهة. وجرت العادة بأن يقف رئيس الكهنة، عندما تحضر العتائر إلى المذبح إلى جانب الملك، ويصلى بصوت عال وقد أحاط بهما جمهور غفير من المصريين فيدعو للملك بالصحة وسائر الأنعم مادام منتهجاً سبل العدل إزاء رعيته. وكان من واجب رئيس الكهنة أن يعلن صراحة فضائل الملك واحدة فواحدة فيقول إنه يتقى الآلهة، شديد الرحمة بالناس، حلِيم، عادل، كبير النفس، منزّه عن الخداع، يبذل ماله بسخاء، وبالجملة، فهو قابض على زمام شهواته، يجزى المسيء بأقل مما يستحق من عقوبة، ويثيب المحسن بأوفى مما أسلف من إحسان، وبعد أن يعد كثيراً مما شاكل هذه الفضائل، يصلى الكاهن القائم بالصلاة من أجل الخطايا التي صدرت عن جهل، منزهاً الملك عن اللوم، ومستمطراً اللعنة والعقاب على خدامه الذين أفتوه بآراء خبيثة. ولقد كان الكاهن يقوم بذلك ليهدى الملك إلى التقوى ومخافة الله، وليرشده إلى حياة ترضاه الآلهة، لا عن طريق الزجر العنيف بل عن طريق المدح المستحب الداعي بصراحة إلى الفضيلة. وبعد ذلك حينما يفرغ الملك من فحص أحشاء الضحية، ويطمئن إلى الفأل الحسن. يقرأ الكاتب بصوت مرتفع من الكتب المقدسة طرفاً من الحكم المفيدة، وأعمال مشاهير الرجال، حتى يتسنى لصاحب السلطان على البلاد بأسرها أن يتملى في قلبه أحسن أصول الحكم فيهدى إلى الخطة القويمة فى تدبير شئون الأقاليم. ولم يحدد

له القانون وقت تصريف شئون الحكم، أو عقد المحاكمات فحسب، بل حدد له كذلك وقت نزهته، واستحمامه، واجتماعه بزوجته، وبالجملة، فقد خصص له وقتاً معيناً لكل شأن من شئون الحياة.

وكان من عادة الملوك أن يتعاطوا اللحم الرخيص فيأكلوا لحم العجول والإوز فقط، ويشربوا قدرًا معينًا من النبيذ، لا يكفي لامتلائهم فوق الحد أو سكرهم.

وبالجملة فأسلوب حياتهم كان منظمًا تنظيمًا معتدلًا إلى حد أنه يبدو أن واضعه لم يكن مشرعًا بل أحسن الأطباء وضعه، وصحة الملك هدفه الوحيد.

وإذا بدا عجيبًا أن الملك لم يتمتع بالحرية المطلقة في اختيار طعامه اليومي، فأشدَّ عجبًا من ذلك بكثير أنه لم يكن في قدرته أن يقضى في المخاصمات أو يصرف ما يعن له من الأمور، أو يقضى بعقوبة على أحد من الناس مدفوعًا بكيد له أو غيظ منه، أو بأى دافع ظالم آخر، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين في كل حالة.

وبالرغم من التزامهم السنن التقليدية دائمًا، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن أن يغضبوا أو يحملوا ضغينة في قلوبهم لأحد. بل على العكس رأوا أنهم يحيون أسعد حياة. فقد كانوا يعتقدون أنه عندما يطلق غيرهم من الناس بدون روية العنان لنزعاتهم الطبيعية، يأتون من الأعمال ما ينطوي على الخسائر أو المخاطر، وأنه يحدث كثيرًا أن يرتكب بعض

الناس - مع علمهم بأنهم على وشك التردى فى الخطيئة - أعمالاً  
 وضيفة لوقوعهم تحت سيطرة الحب أو الكره أو غيرهما من العواطف  
 الأخرى، بينما الملوك - بانتهاجهم أسلوباً من الحياة يحبذه أحكم  
 الناس - يلتزمون جادة العدل إزاء رعييتهم فقد استشعر القوم نحوهم من  
 الولاء ما يزيد عما يكونه لأهلهم من حب فلا يولى الكهنة ولا سكان  
 مصر كافة نساءهم وأولادهم وسائر مقتنياتهم الثمينة من الاهتمام ما  
 يولونه لسلامة الملوك، ولذلك احتفظوا رداً طويلاً من الزمان بالنظام  
 السياسى الذى وضعه الملوك الذين أتينا على ذكرهم، وظلوا يتمتعون  
 بحياة سعيدة جداً فى ظل هذه المجموعة من القوانين، هذا إلى أنهم  
 قهروا شعوباً كثيرة، وجمعوا ثروات طائلة وزبنوا بلادهم بمبان ومنشآت  
 لا تضارع، وجملوا مدنهم بشتى أنواع النصب الباهظة النفقات..

❧ وتنهض الحفلات التى تقام فى مصر بعد موت الملك دليلاً  
 قاطعاً على ولاء الشعب لحكامه. فإن مايبعثه العرفان من تكريم يصفونه  
 على ملك لا يشعر به، ينطوى على برهان حقيقى على إخلاصهم.  
 وعندما يفارق أحد ملوكهم هذه الحياة الدنيا يعم الحزن المصريين جميعاً  
 فيميزقون ملابسهم، ويغلقون معابدهم ويمتنعون عن تقديم الأضاحى  
 للآلهة، ولا يحيون الأعياد اثنين وسبعين يوماً، ويخرج الرجال والنساء  
 جميعاً، وقد لطحوا رؤوسهم بالطين، واثتروا فيما يلى الصدر بلباس من  
 التيل الرفيع - فى جماعات مؤلفة من مائتين أو ثلاثمائة - فينشدون  
 مرتين فى اليوم المراثى ملتزمين الضرب ويرتلون المدائح للمتوفى،  
 ذاكرين فضائله، ويصومون عن أكل اللحم والدسم ويمتنعون عن تعاطى

النبيذ وسائر أنواع الترف، ولا يرضى أحد منهم أن يستحم أو يتطيب أو ينام على فراش وثير، أو يجرؤ على إتيان النساء، بل يحزنون حزناً عظيماً ويحدون طوال الفترة المذكورة، كأن الواحد منهم قد فقد ابنه العزيز، فيكونون في هذه الأثناء قد جهزوا ما يلزم لإقامة الشعائر الجنائزية تجهيزاً رائعاً، وفي آخر أيام الحداد يضعون النعش الذي يضم الرفات أمام مدخل القبر، ويشكلون - طبقاً للطقوس - محكمة لتتظر فيما قدم المتوفى من أعمال في هذه الحياة الدنيا. وقد أباحوا لمن شاء أن يتهمه، أما الكهنة فتأبئه؛ معددة مناقبه، وألوف الناس التي اجتمعت لتشييعه تنصت إليها وتشترك في تأبينه. هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقاً حياةً مجيدة، أما إذا كانت حياته على العكس وضيفة، تصايحت الجماهير. وقد حرم كثير من الملوك حق الدفن الرسمي الذي تخوله لهم الشرع نتيجة لاعتراض الشعب. ولذلك كان من يخلفونهم على العرش يقيمون العدل لا لما أسلفنا من أسباب فحسب بل خوفاً من العار الذي يلحق بأجسادهم بعد الموت، ومن اللعنة الأبدية كذلك. هذه إذن أهم التقاليد التي تتصل بالملوك القدامى.

٣٣ ومصر بأجمعها مقسمة إلى مديريات متعددة تسمى الواحدة في اليونانية مقاطعة، يعين لها مدير له حق الإشراف والمراقبة التامة فيها. وتنقسم البلاد فوق ذلك إلى ثلاثة أقسام كان أولها في حوزة الكهنة<sup>(١)</sup> الذين كانوا يتمتعون باحترام عظيم بين الشعب، لتفرغهم لأمر الدين،

(١) جاء ذكر نظام الطبقات في مصر في هيرودوت ٢، ١٦٤ - ١٦٨، واسترابون ١٧، ١، وأفلاطون، «تيمائوس» ص ٢٤، وأيسقراط، «بوسيريس» ١٥، ١٦، وكلهم مجمعون على أن الطبقة الأولى مؤلفة من الكهنة والثانية من الجند.

ولما يبذونه لتفقههم من فرط الذكاء. وهم ينفقون من دخلهم هذا على جميع الأضاحى التى تقرب فى مصر، ويكفون مؤنة معاوينهم، ويدبرون حاجياتهم الخاصة، وذلك للاعتقاد السائد بأن عبادة الآلهة يجب ألا ينالها التحريف، ويتحتم أن تقوم بها دائما طبقة بعينها بأسلوب بعينه، وينبغى للذين يعنون بشئون الدين نيابة عن الجميع ألا تعوزهم ضرورات الحياة. وعلى العموم فقد كان الكهنة يتشاورون فى أمهات المسائل، ويلازمون الملك، تارة كمعاونيه، وتارة كوزرائه ومعلميه، وهم ينبئون الملك بالمستقبل بوساطة التنجيم والعيافة، ويقراءون له من سفر الأعمال فى الكتب المقدسة ما عساه أن يكون مفيداً، وليس الحال هنا كما هو عند اليونان، إذا يمثل رجل واحد أو امرأة واحدة هيئة الكهنوت، بل يقف الكثيرون منهم حياتهم على العبادة وتقريب الأضاحى للآلهة، ويورثون أعقابهم نفس مهنتهم فى الحياة. والكهنة معفون من جميع الضرائب، وهم يأتون بعد الملك فى الشهرة والسلطان. وكان القسم الثانى من نصيب الملك. يستقى منه دخله الذى يمول منه الحرب، وينفق منه على بلاطه الرائع، ويثيب الأبطال بمنح تناسب جدارتهم، ولما كانت موارده هذه تفىء عليه دخلاً كبيراً، لم يرهق الناس بالضرائب. أما القسم الثالث فقد وقف على الفئة التى يسمونها المحاربين وهى التى تقوم بالخدمة العسكرية.

والحكمة فى ذلك أنه ينبغى أن يكون المحاربون الذين يجازفون بأرواحهم أشد الناس تعلقاً بأوطانهم، فيتحمسون لفضل هذه المنح العقارية فى مواجهة ما تنطوى عليه الحرب من أخطار، لأنه من

السخف أن تكل سلامة الشعب بأسره إلى فئة ليس لها في البلاد التي ستحارب من أجلها نصيب كفيف بإثارة نخوتها. هذا ولكن أكثر الاعتبارات أهمية أن المحاربين إذا كانوا في بحبوحة من الرزق أقبلوا على إنجاب الأبناء، فيزيدون بذلك من تعداد الشعب إلى حد يجعل البلاد في غنى عن استخدام الجنود المرتزقة. ولما كان المحاربون يرثون حرفتهم عن آبائهم، فإن بطولة آبائهم تحفزهم إلى المجد، ولما كانوا شديدي الاهتمام منذ طفولتهم بالأعمال الحربية، فإنهم يشبون أبطالاً لا تقهر في ميدان الجراءة والحنكة.

٧٤ وهناك ثلاث طبقات أخرى في الدولة، وهي الرعاة والفلاحون والعمال. فالفلاحون يؤجرون الأرض الخصبة الخاصة بالملك والكهنة والمحاربين نظير أجر زهيد، وهم يقضون كل حياتهم في فلاحه الأرض، ويفوقون بكثير فلاحى سائر الشعوب مهارة. لأنهم يتدربون على الأعمال الزراعية منذ نعومة أظفارهم. وهم أيضاً أدق منهم جميعاً علماً بطبيعة الأرض وطرق ريها، ومواقيت البذر والجنى وسائر عمليات جمع المحصول. وهذه المعلومات استقوا بعضها من ملاحظات أجدادهم. والبعض الآخر من تجاربهم الشخصية. وينطبق هذا الوصف كذلك على طبقة الرعاة، فقد كانوا يخلفون آباءهم على حرفة رعى الماشية كما لو كان ذلك طبقاً لقانون النواريث. فيقضون حياتهم طولها في الرعى وقد أخذوا عن أجدادهم معلومات كثيرة عن أحسن طرق رعى الماشية وتربيتها، ووقعوا هم أنفسهم على معلومات غير قليلة لشدة شغفهم بفنهم. ومما يدعو إلى الدهشة حقاً، أن مربى الدجاج والإوز

يحصلون ، لما امتازوا به من مهارة فنية لفرط ولعهم بصناعتهم ، على مقادير لا تحصى من الدواجن ، فضلا عن الدواجن التي تنتج بطريق التفريخ الطبيعي الذي يكتفى به سائر الناس . ذلك بأنهم لا يستخدمون الدواجن فى تفريخ البيض ، بل يقومون هم أنفسهم بذلك بطريقة صناعية عجيبة ، فيحاكون بما هم عليه من فطنة ومهارة قوى الطبيعة ومهارتها . ويلاحظ كذلك أن الناس فى مصر يبذلون الجهد فى الصناعة حتى تتقدم وترتقى إلى غايتها المرموقة . فمصر هى البلد الوحيد الذى لا يسمح فيه للصناع بممارسة عمل آخر ، أو التدخل فى شئون السياسة ، بل يلتزمون ماورثوا عن آبائهم من حرف طبقاً لنصوص القانون ، حتى لا تقف منافسة المعلم أو مشاغل السياسة أو أى شىء آخر حجر عثرة فى طريق انكبابهم على صناعتهم . هذا فى حين أننا نجد الصناع فى الشعوب الأخرى موزعى الهمة بكثير من المشاغل فيدفعهم الجشع إلى عدم الاستمساك بحرفتهم ، فيتعلق البعض منهم بالزراعة ويساهم البعض الآخر فى التجارة ، ويمارس البعض الآخر حرفتين أو ثلاثة ، وفى البلاد الديمقراطية<sup>(١)</sup> يهرع الصناع فى جماعات كبيرة إلى المجالس التشريعية فيقوضون دعائم النظام السياسى ، ويكتسبون المال من أيدى باذلى الرشاوى ، أما فى مصر فيستهدف الصانع الذى يتدخل فى السياسة أو يمتن أكثر من حرفة واحدة لأشد العقوبات . هذا إذن تقسيم الأمة إلى طبقات كما وضعه سكان مصر القدامى ، وذلك مبلغ استمساك كل فرد منهم بطبقته الخاصة التى ورثها عن أسلافه .

(١) يظهر أن ديودور يعنى أننا على التخصيص .

٧٥

وأولوا القضاء اهتماماً عظيماً معتقدين أن لأحكام المحاكم تأثيراً كبيراً في الحياة العامة، وذلك بسبيلين، فقد كان من الجلى أن الوسيلة المثلى لردع الجرائم هي معاقبة الجناة والانتصار للمظلومين. لأنه إذا فقدت المحاكم هيبتها لدى الخارجين على القانون، بعامل الرشوة أو مراعاة الخواطر، تفشت الفوضى في الحياة العامة. وتوصلوا إلى غرضهم هذا بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين. فقد كانوا ينتقون من كل من هليوبوليس وطيبة ومنف عشرة قضاة، وهذه الهيئة لا يمكن أن تعتبر أقل شأنًا من مجلس الأريوباجوس في أثينا أو مجلس الشيوخ عن الإسبرطيين. ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيسًا للقضاة، ثم ترسل المدينة قاضيًا آخر ليشغل مكانه. وكان الملك يصرف للقضاة مرتبات تسد حاجتهم، وتكفي لإقامة أودهم، أما رئيس القضاة فكان يصيبه أضعاف هذا القدر. وكان من عادة كبير القضاة أن يحمل قلادة ذهبية يتدلى منها تمثال صغير من الأحجار الكريمة يسمونه «الحق». وكان القضاة يأخذون في النظر في القضايا حينما يتقلد كبيرهم صورة الحق. وكانت القوانين كلها مدونة في ثمانية كتب، توضع بجانب القضاة.

وجرت العادة بأن يكتب المدعى شكواه بالتفصيل مبيناً كيف حدثت الواقعة ومبلغ الضرر، فيأخذ المدعى عليه عريضة خصمه، فيرد على كل نقطة فيها مدافعا بأنه لم يرتكب هذا الأمر، أو أنه ارتكبه ولكن لا إثم فيه، أو أنه أثم حقا ولكنه يستحق عقوبة مخففة. وبعد

ذلك يفند المدعى أقوال خصمه مستنداً إلى نصوص القانون، ثم يدفع المدعى عليه الاتهام مرة أخرى، وبعد أن يقدم كلا الخصمين العرائض التي كتبها إلى القضاء مرتين، يتعين على القضاة الثلاثين حينئذ أن يتفقوا فيما بينهم على الحكم، فيضع رئيس القضاة تمثال «الحق» على أحد جانبي الخصومة.

**٧٦** هذه إذن هي الطريقة التي اتبعتها المصريون في جميع محاكماتهم، معتقدين أن الخصوم يلقون بمرافعاتهم ظلاً كثيفاً على الحق، ذلك أن براعة الخطباء، وسحر بيانهم، ودموع الذين يستهدفون للخطر من المتهمين، تدفع الكثيرين إلى التغاضي عن صرامة القانون، وقسوة الحق. ومهما يكن من شيء، فالملاحظ أنه كثيراً ما تخدع براعة المحامين رجالاً من أفاضل القضاة، إما بخدعة، أو بسحر البيان، أو بإثارة مشاعر الرحمة فيهم. ومن ناحية أخرى، فقد رأى المصريون أنه إذا قدم المتقاضون عرائضهم كتابة كانت المحاكمة دقيقة، إذ تكون الحقائق المجردة فقط محل النظر. وبالأخذ بهذا النظام على الخصوص لا تكون اليد العليا للموهوب دون الخامل، ولا للمحنك دون الغر، ولا للكاذب الجريء دون الصادق الحبي الطبع، بل يلقي الجميع العدل على قدم المساواة، لأن الوقت سينفسح على هذا النحو للخصوم لفحص حجج خصومهم، وللقضاة للموازنة بين حجج جانبي الخصومة.

**٧٧** ونظن الآن، وبعد أن تحدثنا عن تشريعهم، أنه ليس من غير المناسب في بحثنا هذا أن تأتي على ذكر بعض القوانين المصرية

التي امتازات بقدمها السحيق، أو اتخذت وضعاً شاذاً، أو يمكن أن تكون ذات فائدة لمحبي الاطلاع. فأولاً: كان الموت عقوبة البيين الكاذبة، على اعتبار أنها تنطوى على جريمتين كبيرتين، الكفر بالله وخرق أعظم ضمان للثقة بين الناس. وثانياً، إذا رأى أحد أثناء تجواله فى البلاد رجلاً يُقتل أو يعانى على أى وجه أذى ما، دون أن ينقذه، وكان قادراً على ذلك، استحق عقوبة الموت، أما إذا لم يكن حقاً قادراً على مدِّ يد المساعدة، تحتم عليه دائماً أن يبلغ عن اللصوص ويقتفى أثر الجريمة. ومن تهاون فى ذلك، وقد نص عليه القانون، يجلد عدداً معيناً من الجلدات، ويحرم الأكل بتاتاً ثلاثة أيام متوالية. ويلاقى أصحاب البلاغ الكاذب نفس العقوبة التي يستحقها المبلغ ضدهم لو أنه ثبتت إدانتهم. هذا إلى أنه على المصريين عموماً أن يقدموا لموظفى الحكومة كشفاً عن مصدر كسب كل منهم لمعاشه، والموت بالضرورة عقوبة كل من يزور فى هذا الكشف، أو يكون مورد رزقه حراماً. ولقد نقل صولون فيما يقال هذا القانون إلى أثينا حينما زار مصر. ونصت القوانين على أن الموت عقوبة كل من يقتل عمداً رجلاً حرّاً كان أم عبداً. وذلك لغرضين: أولهما ردع الناس كلهم عن الإثم بعقوبة لا تختلف باختلاف حظوظهم فى الحياة، بل تبعاً لنياتهم فى أعمالهم، وثانيهما تعويد الناس على أن الأولى بهم الامتناع بتاتاً عن الاعتداء على الأحرار. ولم تسن عقوبة الموت للآباء الذين يقتلون أبناءهم، بل فرض عليهم أن يظلوا ثلاثة أيام وثلاث ليال سوياً حاملين جثة القتيل باستمرار، تحت إشراف حراس

رسميين. فلم يرَ المصريون أنه من العدل أن يحرّموا الحياة أولئك الذين منوا بها على أولادهم، بل رأوا العدل في أن يصرّفونهم عن مثل هذه الجرائم بعقوبة تبعث الألم والتوبة. أما الأبناء الذيت يقتلون آباءهم، فقد سنوا لهم عقوبة غريبة. فإن من تثبت إدانتهم بهذه التهمة تقتضب من أجسامهم بقصب مسنون قطع بحجم الإصبع، ويشوون أحياءً على فراش من قتاد. فقد رأوا أن أشنع جرائم الإنسان أن يقضى بالقوة على حياة الذين منحوه الحياة. والنساء اللائى يقضى فيهن بالموت لا ينفذ فيهن الحكم إذا كنّ حبالى قبل أن يضعن، وقد نقل كثير من دول اليونان هذا القانون. فقد رأوا أنه من الظلم المحض أن يشارك الجنين البرئ أمه المذنبية فى جريرة ذنبها، أو أن يقتص من اثنين لوزر واحد، أو أن يتعرض الجنين لنفس عقوبة أمه مع أنه لا يعى شيئاً البتة، فى حين كان ارتكاب الجريمة مع سبق الإصرار، وأهم الاعتبارات كلها أنه من غير المفهوم أن يقضى بالموت على الجنين وهو ملك مشاع بين الأب والأم، فى أن الوزر منسوب إلى المرأة الحبلى وحدها. ومن الجائز أن تعتبر القضاة الذين يبقون على حياة المجرم الذى أدين بجريمة القتل، والقضاة الذين يقضون على حياة من لا ذنب لهم البتة، سواء فى الجور. هذه إذن بعض القوانين المتعلقة بجريمة القتل وقد اشتهرت فوق كل شىء بإصابتها البالغة.

ولا ينص قانونهم العسكرى على عقوبة الموت جزاء لمن يفر من الجندية أو يعصى أوامر قواده، بل عقوبته فقدان الاعتبار، فإذا ما

مَحَا أحدهم عاره بأعمال البطولة، رد له اعتباره كما كان. وهكذا جعل المشرع عقوبة فقدان الاعتبار أشد من عقوبة الموت حتى يعود الناس على النظر إلى العار باعتباره أعظم الشرور. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، رأى المشرع أن الذين يقضى فيهم الموت لا يفيدون الحياة العامة بشيء، بينما الذين يفقدون اعتبارهم قد يكونون مصدر خير كثير لحرصهم على استرداد اعتبارهم. أما الذين يفشون الأسرار للأعداء فقد قضى القانون بانتزاع ألسنتهم. والذين يزيغون النقود، أو يطففون الموازين والمكاييل، أو يزورون الأختام، وكذلك الكتبة العموميون الذين يزورون في متون السجلات. أو يمحون شيئاً من نصوصها، أو يبرزون عقوداً مغشوشة، فقد قضى القانون بقطع كلا أيديهم جميعاً. وهكذا يحمل المجرم الذي ينزل العقاب بالعضو الذي استخدمه من ارتكاب جرمه جرماً لا يندمل إلى يوم مماته. فيكون عظة للآخرين بما لقي من جزاء، ويصرفهم عن اقتراف أمثال هذه الجرائم. وكانت القوانين عندهم فيما يتعلق بالنساء صارمة كذلك. فقد كان الخصاص عقوبة كل من يغتصب المرأة الحرة، فقد رأوا أن المغتصب بارتكابه جريمة واحدة يقترب ثلاثاً مع أشنع الآثام: انتهاك الحرمه، والزنا، وخلط أنساب المواليد. أما إذا زنى أحد بامرأة برضاها فقد قضى القانون بأن يجلد الرجل ألف جلدة، وأن يجدد أنف المرأة، فقد اعتقدوا أن المرأة التي تزين للمعصية الجامحة يجب أن تحرم أكبر مقومات الجمال.

٧٩ وتُنسب قوانين المعاملات لبوخوريس، وهي تقضى من ناحية، بأن من اقترض مالا دون إيصال وأنكر الدين، يُعفى من

سداده إذا حلف اليمين على ذلك. والغرض الأول من هذا النص أن يستشعر الناس مخافة الله بتعليقهم أهلية عظمى على اليمين، ذلك بأنه لما كان من الجلّي أن الذى يحلف أيماناً كثيرة يفقد آخر الأمر ثقة الناس فيه، فإن الجميع سيعلقون أهمية عظمى على اجتناب اللجوء إلى الحلف، حتى لا يفقدوا ثقة الناس فيهم. والغرض الثانى للمشرع من جعل الثقة بأكملها قائمة على الشرف هو تشجيع الكافة على أن يكونوا فضلاء فلا يُعرف عنهم أنهم غير أهل للثقة. هذا إلى أن المشرع رأى أنه من الظلم ألا يوثق بالذين كانوا محل ثقة دون أن يحلفوا اليمين إذا حلفوها فيما يتعلق بالدعوى نفسها. أما الذين يقرضون أموالاً بإيصالات فقد قضى القانون بألا يزيد رأس المال عن طريق الفائدة إلى أكثر من الضعف.

أما عن المدين، فقد قضى المشرع بأن يكون استيفاء الدين من ممتلكات المدين وحدها، ولم يجز قط أن يكون شخص المدين فى أى ظرف من الظروف رهينة لدينه<sup>(١)</sup> فقد رأى أنه ينبغى أن تكون الأرض ملكاً للذين يعملون عليها أو الذين أخذوها هدية من أصحابها. أما الناس أنفسهم فيجب أن يكونوا ملكاً للدولة حتى تستأديهم مالها عليهم من واجبات فى الحرب والسلام جميعاً. فقد رأى أنه من السخف أن يلقى الدائن القبض على جندى وفاء لدينه وهو يواجه الأخطار دفاعاً عن

(١) كان القانون المصرى القديم ينص على استرقاق المدين إذا لم يف بدينه، ثم ألغى هذا القانون، ولكنه أصبح نافذاً فى القرن السادس ق. م. فى عهد أمازيس، وألغى بعد ذلك إلى أن أحياء البطالة من جديد

بلاده، فتعرض سلامة الجميع للخطر من جراء جشع بعض الأفراد. ويبدو أن صولون نقل هذا القانون كذلك إلى أثينا وسماه قانون «تخفيف الالتزامات»<sup>(١)</sup> وأعفى بمقتضاه الآثينيين كافة من سداد الديون التي كان ضمانها شخص المدين. ويلوم البعض - بحق - أغلبية مشرعي اليونان الذين حرموا الاستيلاء على العُدَدِ والمحاريث وسائر الآلات الضرورية ضماناً للدين، مع أنهم أباحوا ارتهان الأنفس التي تستخدم هذه الآلات. وكان القانون الخاص باللصوص عند المصريين عجيباً كذلك.

فقد فرض على من يريد احترام هذه المهنة أن يقيد اسمه لدى رئيس اللصوص وأن يتعاقد على أن يبلغه بأمر المسروقات فوراً. وعلى ضحايا السرقة أن يبلغوا الأمر كذلك إليه مبيينين المسروقات بالتفصيل ذاكرين المكان واليوم والساعة التي ارتكبت فيها السرقة، وبهذه الطريقة يهتدون إلى كافة المسروقات بسهولة. وكان على ضحية السرقة أن يدفع ربع قيمة المسروقات لمجرد استرداد ما كان ملكاً له. ذلك بأنه لما كان من غير الممكن أن يمتنع الكافة عن السرقة فقد ابتكر المشرع طريقة يمكن بواسطتها استرداد جميع المسروقات مقابل فدية صغيرة، ويتخذ الكاهن في مصر زوجاً واحدة أما سائر الرجال فيتخذون من الأزواج ما يشتهون. والآباء ملزمون بتربية أولادهم جميعاً<sup>(٢)</sup> لزيادة تعداد السكان.

(١) أصدر صولون هذا القانون سنة ٥٩٤ ق. م. وأعتق بمقتضاه كل من كان استرقاقهم بسبب عدم وفاء دين.

(٢) يعنى أن وأد الأطفال بتركهم في العراء، وقد كان داء فاشياً في بلاد اليونان، وكان محرماً في مصر.

فقد رأوا أن ذلك يزيد عمار البلاد والمدن. وهم لا يعتبرون أي ولد ابناً غير شرعي ولو كان ابن أمة مشتراة، وبالجملة فهم يعتبرون الأب وحده مسئولاً عن إنجاب الأطفال، أما الأم فتزود الجنين بالغذاء والجنّة، ويدعون الشجر الذي يحمل الثمر ذكراً والذي لا يحمل ثمراً أنثى بعكس الاصطلاح اليوناني.

ويربى المصريون أبناءهم ببسر واقتصاد فوق الإدراك، فهم يقدمون لهم عصيدة مصنوعة من أي مادة رخيصة متوفرة، وسوق نبات البردى التي يمكن أن تشوى على النار، وجذور وسوق النباتات المائية، بعضها نيئ وبعضها مطبوخ والبعض الآخر مشوى. ولما كان معظم الأبناء يمضون شبابهم لحسن مناخ البلاد حفاة عراة، فإن جميع ما يتحملة الآباء من نفقات إلى أن يبلغ الابن أشده لا يزيد على عشرين دراخمة. وهذا أهم الأسباب الرئيسية التي أصبحت مصر من أجلها بلداً ممتازة بوفرة عدد سكانها، وإلى تلك الحقيقة الأخيرة يرجع السبب في أن مصر تضم عددًا كبيراً من الآثار العظيمة.

ويعلم الكهنة أبناءهم نوعين من رسم الحروف، الرسم الذي يدعى «الكتابة المقدسة» والرسم الذي يستعمل في العلوم الأكثر شيوعاً<sup>(١)</sup>، وهم يبذلون جهدهم بنوع خاص في علم المساحة والحساب. وذلك لأن النهر يغيّر وجه الأرض كل عام بطرق مختلفة، ويثير المنازعات بين الجيران على الحدود، وليس من السهل حسم هذه

(١) كان للمصريين ثلاثة أنواع من الكتابة: الهيروغليفية، والهيرواطيقية، والديمقراطية، ولكن ديودور، وشأنه في ذلك شأن هيروdot، لم يستطع أن يفرق بين الرسمين الأولين.

المنازعات على وجه الدقة إلا إذا اهتمدى المساح إلى الحقيقة بخبرته وفنه، أما الحساب فيفيدهم في تدبير شئونهم اليومية وفي تطبيق نظريات المساحة، والحساب إلى جانب ذلك ليس قليل النفع للذين ينصرفون إلى علم الهيئة، فاهتمام المصريين بأوضاع النجوم وحركاتها أكبر مما يوليها أي شعب آخر من الاهتمام. فهم يحتفظون بأزياج عن كل واحد منها منذ عدد لا نتصوره من السنين.

ولما كانوا شغوفين بهذه الدراسة منذ عهود سحيقة القدم، ورسدوا باهتمام عظيم حركات الأجرام ومداراتها ومواضعها وقدرة كل منها على خلق الكائنات الحية، وتأثيرها الحسن والسيئ، فيها، فكثيرا ما تكهنوا بما سيقع للناس من حوادث، وفي غير قليل من المناسبات تنبأوا بفساد المحصول أو على العكس بوفرته أو أن الطاعون سيتفشى في الناس والماشية جميعا، وأتاح لهم رصد النجوم لآماد طويلة علما سابقا بالزلازل والفيضانات وظهور المذنبات وجميع الظواهر التي رأى الناس أنها مما لا يتكهن به ويدعى المصريون أن الكلدانيين في بابل جالية مصرية، وأنهم مدينون بشهرتهم في علم الهيئة للعلم الذي أخذوه عن الكهنة المصريين.

أما سائر أهل مصر فيتعلمون من آباءهم أو أقربائهم الصناعات اللازمة لضرب من ضروب الحياة المختلفة، كما أسلفنا في ذلك القول<sup>(١)</sup>، أما القراءة والكتابة فيتعلمون منها نذرا يسيرا، وهذا لا يجري على الجميع، بل يسرى على أولئك الذين يمارسون الصناعات بالتخصيص،

(١) راجع الفصل ٤٣، ٧٠، ٧٤

ولم يجر العرف بينهم بأن يتربوا على الرياضة البدنية<sup>(١)</sup> والموسيقى ، ذلك بأنهم يعتقدون أن الأحداث لا يكتسبون الصحة بتمريناتهم اليومية في منتديات الألعاب الرياضية ، بل يصابون قوة عارضة قريبة الزوال ، أما الموسيقى فقد كانت في رأيهم عديمة الفائدة ، بل ضارة إذ إنها في الواقع تدخل التخنث على السامعين.

**٨٢** وعالجوا أجسامهم توقيا للأمراض بالحقن والحمية والمقيئات يتناولونها أحيانا كل يوم ، وأحيانا أخرى بعد ثلاثة أو أربعة أيام ، فهم يقولون إن الجزء الأكبر من مجموع الغذاء الذي نتناوله زائد عن الحاجة ، وأنه يولد الأمراض ، وإذن فالعلاج الذي ذكرنا يستأصل المرض ويضمن الصحة ، وفي أثناء الحملات الحربية أو الرحلات إلى داخل البلاد ، يعالج الجميع دون أن يُطالب أحد بأجر ، ذلك أن الأطباء يتقاضون معاشهم من الحكومة ، وهم يصفون العلاج طبقا لأصول مكتوبة ، وضعتها طائفة من مشاهير الأطباء المتقدمين ، وإذا أمعن الطبيب النظر في الأصول المثبتة في النصوص المقدسة واتبعها ، ولم يستطع مع ذلك أن ينقذ المريض فلا جناح عليه ، وهو براءة مما قد يتهم به ؛ أما إذا انتهج نهجا يناقض الأصول فيقدم إلى المحاكمة وعقوبته إذا أدين الموت ، فقد رأى المشرع أن قليلين من عساهم أن يكونوا أكثر علما من الأصول التي وضعها أئمة الصناعة وظلت مرعية منذ قرون عديدة.

**٨٣** أما الحيوانات المقدسة في مصر ، فهي ظاهرة تبدو بالطبع غريبة للكثيرين ، وجدير بالبحث والتمحيص ، فالمصريون يبالغون في

(١) أشار هيرودوت ٢ ، ٩١ إلى مباراة رياضية في أخميم

تقديس بعض الحيوانات، لا وهي في قيد الحياة فحسب.. بل بعد مماتها أيضا، وهذه الحيوانات هي القط، والنمس، والكلب، والصرق، والطائر الذي يسمونه الأبيس (أبو منجل)، يضاف إليها الذئب والتماسيح وكثير غيرها مما يشاكلها، وسأحاول أن أذكر أسباب هذه العبادة بعد أن أتحدث أولا باختصار عن هذه الحيوانات نفسها، يوقف أولا على كل نوع من الحيوانات المقدسة أرض تكفي غلتها للعناية بها وتغذيتها، فالمصريون يوفون النذور من أجل أبنائهم إذا نجوا من مرض فيحلقون رؤوسهم ويزنون الشعر بقضة أو ذهب ويهبون زنته للذين يقومون على خدمة الحيوانات المذكورة، والذين يرعون الصقور يقطعون لها اللحم شرائح، وينادونها بأعلى صوتهم، ويظنون يلقون الشرائح إليها وهي محلقة إلى أن تلتقطها، أما القطة والنموس فينبسون لها ويطرحون على الأرض الخبز الملوِّق باللبن، أو يقطعون لها السمك النيلي ويطعمونها إياه نيئا، وهكذا يقدِّمون الغذاء المناسب لكل نوع من الحيوانات الأخرى، ولا يتخلى المصريون مطلقا عن تأدية شعائر هذه الحيوانات، ولا يخجلون من أن يراهم الناس يؤدونها، بل على العكس، يتيهون بها كبرا كما لو كانوا يؤدون أقدس شعائر الآلهة. ويطوِّفون في المدن والقرى حاملين شارات خاصة، وعندما يرى المارة من بعيد لأي حيوان تقام الشعائر، يخرون له سجدا ويتعبدون، وعندما يموت أحد هذه الحيوانات المذكورة، يلفونه في سندس ويضربون صدورهم معولين، ويحملونه ليحنت، وبعد أن تعالج الجثة بزيت الأرز وبيع بعض المواد

الأخرى التي لها خاصة إكسابها رائحة ذكية، وحفظها وقتا طويلا، يضعونها في تابوت مقدس.

ومن يقتل عامدا أحد هذه الحيوانات يلاق الموت، أما من يقتل قطا أو أبا منجل فسواء قتلها عامدا أم غير عامد فالموت نصيبه على كل حال، إذ يهجم العامة على المذنب ويسومونه سوء العذاب دون محاكمة في بعض الأحيان، وإذن فكل من يرى واحدا من هذه الحيوانات ميتا، يبتعد إلى مكان قصي ويصيح ويولول مشهدا الناس، خوفا من مثل هذا المصير، على أنه عثر على الحيوان وقد نفق. ولقد امتزج الخشوع لهذه الحيوانات بقلوب العامة وظلت نفوسهم متشبثة بأمر عبادتها إلى حد أنه في الفترة التي سبقت منح الرومانيين ملكهم بطليموس لقب «صديق روما»، حدث أن قتل أحد الرومان قطة، فهجم العامة على بيت الجانى، بالرغم من أن الجمهور كان يبذل قصارى جهده لاسترضاء البعثة الموفدة من إيطاليا، وكان لخوفه شديد الحرص على ألا يزودها بذريعة واحدة للشكوى أو إعلان الحرب عليهم، فلم يُجد الموظفون الذين أرسلهم الملك للتوسط، ولا ما كان يستشعره الجميع نحو روما من خوف، في نجاة الرجل من العقاب، هذا مع أنه ارتكب هذه الفعلة غير عامد، وهذه القصة التي رويناها لم تأتنا عن طريق السماع، فقد شاهدنا نحن هذه الواقعة أثناء زيارتنا لمصر.

وقد تبدو هذه القصة للكثيرين غير معقولة وقريبة من الخرافة، وستبدو القصة التي ستعقبها أكثر غرابة، إذ يحكى أن القحط

هصر المصريين مرة فصاروا في عوزهم يأكلون بعضهم بعضا، ولكن أحدا منهم لم يتهم - مجرد تهمة - بتناول أحد الحيوانات المقدسة، بل فضلا عن ذلك، فإن البيت الذي يُعثر فيه على كلب ميت، يحلق سكانه جميعا أجسامهم كلها ويحدّون، وأشد من هذا غرابة، أنه إذا اتفق أن كان مخزونا في الغرفة التي مات فيها واحد من هذه الحيوانات نبيذ أو خبز، أو شيء ما من ضرورات المعيشة، فإنهم لا يفكرون مطلقا في استعماله بعد ذلك في غرض ما. وإذا كانوا في حملة حربية في مكان ما من بلاد أجنبية، افتدوا القبط والصقور وأحضرها إلى مصر، وهذا دأبهم حتى لو كانت مؤنهم على وشك النفاذ.

ومن السهل وصف ما يصنعون هنا للعجل أبيض في منف، والعجل منيفيس في هليوبوليس والجدى في منديس والتمساح في بحيرة موريس والأسد الذي يبقونه في المدينة التي تسمى لينوبوليس (مدينة الأسد) وكثير غيرها، ولكن من الصعب أن يصدق ما تقول من لم ير ذلك رأى العين.

فالمصريون يبقون هذه الحيوانات في حُجرات مقدسة، ويقوم على خدمتها كثير من الأعيان، ويقدمون لها أفخر الطعام، وهم يدأبون على تزويدها بالقمح المطحون أو المجروش المغلّى في اللبن، وكل أنواع الفطير الممزوج بالعسل، ولحم الإوز مطبوخا ومشويا، أما الحيوانات آكلة اللحوم، فيصيّدون لها طيورا كثيرة ويلقونها إليها. وبالجملة فهم يبذلون قصارى جهدهم في تقديم أفخر الطعام إليها،

ولا ينفكون يهيئون لها الحمامات الساخنة، ويعطرونها بأحسن الطيب، ويحرقون لها جميع أنواع البخور الذكي، ويوفرون لها أعلى السرر والحلى النفيسة، ويفرغون وسعهم لتمكينها من معاشرتها بعضها البعض وفق سنن الطبيعة، فيبقون مع كل واحدٍ من هذه الحيوانات أحلى الإناث من نوعه، ويسمونها السرايا، ويبدلون في خدمتها أبهظ التكاليف وأشق الخدمات، وإذا مات أحد هذه الحيوانات حزنوا عليه حُزن من ثكلوا أولادهم الأعزاء.. ولا ينفقون على دفنه قدر طاقتهم بل يسرفون في ذلك منفقين أكثر مما ملكت أيديهم بكثير. فقد حدث— مثلاً— بعد موت الإسكندر، وبعد أن صارت مصر في حوزة بطليموس ابن لاجوس مباشرة، أن أسن العجل أبيس ونفق، فأنفق الموكلون به في دفنه كل الأموال الطائلة التي كانت قد تكدست لكفالته واقترض فوقها بطليموس خمسين طالنتاً من الفضة، وأدهى من ذلك أن بعض الموكلين بهذه الحيوانات أنفق على دفنها في أيامنا هذه ما لا يقل عن مائة طالنت.

٨٥ وينبغي الآن أن أضيف إلى ما تقدم وصف باقي الحفلات التي تقام للثور المقدس الذي يسمونه أبيس، فعندما ينفق هذا الثور ويودع قبره في حفل رائع، يبحث الكهنة القائمون على هذا الأمر عن عجل في جسمه سمات مشابهة لسمات سلفه الراحل، وعندما يقعون على بغيتهم، يرفع عن الشعب الحداد، ويقود الكهنة المختصون العجل إلى نيلوبوليس (مدينة النيل) Nilopolis أولاً حيث يعلفونه

أربعين يوماً، ثم يودعونه غرفة مذهبة من سفينة حكومية ويرفونه - كأنه إله - إلى معبد هيفايستوس في منف، وفي هذه الأيام الأربعين يسمح للنساء وحدهن برؤيته فيقفن في مواجهته ويرفعن أثوابهن، ويكشفن عن عوراتهن، أما في سائر الأيام فقد حظر عليهن التوجه إلى حضرة هذه الإله.

ويقول البعض إن السبب في تقديس الثور أن روح أوزيريس انتقلت بعد موته إلى الثور، ولذلك ما زالت إلى يومنا هذا تنتقل دائماً إلى سلامة هذا الثور أثناء تجلي أوزيريس، ويرجع آخرون السبب إلى أنه عندما مات أوزيريس على يد طيفون، جمعت إيزيس أجزاء جسمه في بقرة من الخشب، ملفوفة في قماش من التيل الرفيع، ومن هنا سميت المدينة عندهم بوسيريس<sup>(١)</sup>.

وهناك روايات كثيرة أخرى حول أبيس، ولكني أعقد أن الأمر يطول بنا لو سردناها كلها.

٥٤٦ إن طقوس المصريين في عبادة الحيوانات غريبة لا يمكن تصديقها، وهي مصدر حيرة كبيرة لمن يبحثون عن أسبابها وأصولها. ولكهنتهم في هذا الأمر عقيدة سرية، أسلفت ذكرها فيما أوردته عن معتقداتهم الدينية، أما سواد المصريين فلهم في عبادتهم أسباب ثلاثة: أما أولها فخرافي محض أليق بساذجة العصور المتقدمة، فيقولون إن الآلهة التي وجدت منذ البدء كانت قليلة العدد، فغلبها على أمرها مردة

(١) البقرة في اليونانية «بوس» ولكن بوسيريس معناها مدينة أوزيريس وهناك مواضع كثيرة بهذا الاسم

الأرض بكثرة عددهم وبغبيهم، فاتخذت الآلهة صور بعض الحيوانات، فنجت بهذا الأسلوب من توحشهم وبطشهم، ولما سيطر الآلهة بعد ذلك على كل ما فى العالم، قدسوا الحيوانات التى كانوا قد اتخذوا صورها، وعلموا الإنسان أن يراعاها ببذخ فى حياتها، ويودعها القبور بعد مماتها. عرفانا منهم بصنيع الحيوانات التى كانت فى البدء سببا فى سلامتهم، وثانى أسبابهم أن المصريين فى العصور القديمة هزمهم جيرانهم فى مواقع عديدة لانعدام النظام فى جيشهم، ففكروا أن يحملوا أعلاما على رأس كل فرقة، وجعلوا هذه الأعلام على صور الحيوانات التى تُعبَدُ الآن، وكان القادة يحملونها مثبتة فى أسنة رماحهم، فعرف كل فرد- بهذه الطريقة- إلى أى فرقة ينتمى. ولما كان ما نتج عن ذلك من حسن النظام قد ساعد كثيرا على انتصارهم، فقد ظنوا أن الحيوانات هى السبب فى إنقاذهم، وأرادوا أن يعرفوا لها هذا الصنيع، فسنوا سنة ألا يقتلوا واحدا من الحيوانات التى اتخذوا صورتها يومئذ، بل يعبدونها ويولونها ما وصفنا من رعاية وتعظيم.

والتالى ما يأتون به من أسباب تقديس الحيوانات، هو ما يؤديه كل نوع من خدمات فى سبيل المجتمع الإنسانى من ناحية الإنسان من ناحية أخرى، فالبقرة- مثلا- تلد الثيران التى تفلح الأرض وهى نفسها تحرث الأرض الرخوة، أما الأغنام فتلد مرتين فى السنة، وتهيئ لنا بأصوافها أسباب الوقاية والزينة، وتعد لنا بألبانها وجبنا

طعاما شهيا وفرا. أما الكلب فمفيد في الصيد وفي حراسة الإنسان، ولذلك يصور المصريون الإله الذي يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس، ويقول البعض إن الكلاب قادت إيزيس في بحثها عن جثة أوزيريس، وازدادت عنها الحيوانات المفترسة وعابري السبيل، وساهمت - برأ بها - في البحث عن جثة أوزيريس نابحة طوال الوقت، ومن هنا جرت العادة بأن يتقدم الكلاب الموكب في عيد إيزيس، فهذا شاهد يأتي به واضعو هذه السنة على المنة التي أسداها الحيوان في قديم الزمان، وللقطط استعداد خاص لإبادة الناشر القتال وغيره من الزواحف السامة، أما النمس فيترصد للتماسيح حتى تضع بيضها فيهشمه، وهو يقوم بهذا العمل بعناية واهتمام دون أن يكون له أية فائدة من ورائه، ولو لم يكن هذا دأبه لأصبح النهر غير صالح للملاحة لكثرة ما يفتس فيه من التماسيح. ويقتل النمس أيضا التماسيح نفسها بطريقة غريبة لا يمكن تصورها. فعندما يرقد التمساح على شط النهر فاغرا فاه، يتمرغ النمس في الوحل ويقفز من فم التمساح إلى جوفه، ثم ينهش أحشائه بسرعة وينفذ إلى الخارج سالما، تاركا التمساح جثة هامدة في الحال. أما في الطير فأبو منجل يفيد في إبادة الحيات والجراد واليرقات، والصقور، تفيد في إبادة العقارب والحيات المقرنات والحشرات الصغيرة السامة الشديدة الفتك بالإنسان.

ويقول البعض إن تقديس الصقور يرجع إلى أن العرافين يستخدمونها في التنبؤ للمصريين بالغيـب، بينما يقول البعض الآخر إنه في العصور المتقدمة حمل الصقر للكهنه في طيبة كتابا مربوطا بحيث يشتمل على طقوس خدمة الآلهة وعبادتها، ومن هنا كان الكهنه المقدسون يضعون خيطا أحمر وريشة صقر فوق رؤسهم، ويقدم أهل طيبة النسر ويعتبرونه طيرا ملكيا جديرا بزيوس.

❧ ويؤله المصريون الجدى كما يقـدس اليونان بريابوس<sup>(١)</sup> Priapus من أجل ذكره فيما يقال، لأن الجدى شديد الميل للجماع، ويلقى ذكره ما هو أهل له من تعظيم، ذلك بأنه السبب الرئيسي في إنجاب مملكة الحيوان، وبالجملة، فليس ذلك وقفـا على المصريـين وحدهم، فشعوب غير قليلة أخرى تقـدس الذكر في طقوسها، ذلك بأنه السبب في ظهور الكائنات الحية.

والكهنه الذين يخلفون آباءهم على الوظائف الكهنوتية يدخلون بادئ ذي بدء في دين هذا الإله، ولهذا السبب عبد الناس - فيما يقال - بأن<sup>(٢)</sup> pan والساتير<sup>(٣)</sup> satyri، ولذلك تقام لها في المعابد غالبا تماثيل منتصبه الذكر قريبة من هيئة الجدى، لأن المشهور عن هذا الحيوان أنه بالغ الشهوة للجماع، فالمصريون بتصويرهم هذه الآلهة على هذا النحو

(١) بريابوس: إله القوى الطبيعية المخصبة في الإنسان والحيوان والنبات، وكان اليونانيون يصورونه في هيئة جدى.

(٢) إله الماشية والرعاة عند اليونانيين ويمثلونه في هيئة رجل له قرنان ورجلا جدى

(٣) يختلف الساتير عن البان في أنه لا قرون له

يقدمون الشكر على كثرة نسلهم، وهم يعبدون الثيران المقدسة وأعنى هنا أبيس ومنيفيس، كآلهة كما أمر أوزيريس لسببين: فائدتها للزراعة، ولأن شهرة الوقوع على الحروث تنتقل بفضل مجهوداتها من السلف إلى الخلف على طول الزمان.

ولقد كانت التضحية بالثيران الضاربة إلى الحمرة جائزة لما يعتقدون من أن طيفون الذي تآمر ضد أوزيريس ولاقى جزاءه على يد إيزيس لقتله زوجها، كان لونه ضاربا إلى الحمرة، ويقال إن الملوك في العصر القديم كانوا يضحون على قبر أوزيريس بمن كان على لون طيفون من الرجال<sup>(١)</sup> وقليل من المصريين من يضرب لونهم إلى الحمرة، أما أكثر الأجانب فعلى هذا اللون، ولذلك شاعت بين اليونانيين قصة قتل بوسيريس للأجانب. ولكن لفظ بوسيريس ليس علما على ملك.. بل هو لفظ يطلق على أوزيريس الذي كان يسمّى بوسيريس في لغة أهل البلاد. ويقال إن الذئب قدّست لشدة شبهها بالكلاب، فالذئب والكلب يختلفان اختلافا يسيرا في الطباع ويلدان بالتزاوج فيما بينهما. وللمصريين في تقديس هذا الحيوان سبب آخر ولكنه خرافي، فهم يقولون إنه في العصر القديم، لما أزمعت إيزيس مع ابنها حورس أن تناهض طيفون، حدث أن انبعث أوزيريس من العالم السفلي في صورة ذئب ليساعد ابنه وزوجه، فلما قتل طيفون أشار هازموه يتقديس الحيوان الذي استتبع ظهور وجهه النصر، ويذهب البعض إلى أنه لما

(١) أنكر هيرودوت ٢، ٤٥ أمر تضحية المصريين بالرجال، ولعله لم يشاهدها أثناء إقامته، ولكن نحر الأسرى للآلهة مصور في آثار الأسترين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة

سار الأحباش بجيش إلى مصر تألفت رجال كبيرة من الذئاب وتعقبت الغزاة إلى خارج البلاد فيما يلي المدينة التي تسمى إلفنتين ولذلك سمى هذا الإقليم «إقليم الذئاب» وأولوا هذا الحيوان ما ذكرنا من تقديس.

بقي علينا أن نتحدث عن تقديس التماسيح، فقد حار أكثر الكتاب في أمر هذه العبادة. فهذه الضواري تفترس الإنسان، فكيف يسن القانون عبادتها وهي توقع هذه الأضرار الشنعاء؟! ويرد المصريون على ذلك بأن النيل وحده لا يؤمن سلامة البلاد، بل يؤمنها أكثر من النيل ببعيد ما فيه من تماسيح. وهكذا لم يجرؤ قراصنة بلاد العرب وليبيا على عبور النيل خوفا من ضواريه الكثيرة، وما كان هذا ليحدث لو سُنت الحرب على التماسيح وأبيدت عن آخرها بما ينصبه الصيادون من شبك في النهر، وثمة رواية أخرى تحاك حول هذه الحيوانات، إذ يزعم البعض أن أحد الملوك القدماء المسمى مينا تعقبته كلابه الخاصة، فاحتمى منها في البحيرة التي تسمى مويريس وهناك انتشله تمساح بطريقة عجيبة، وحمله عبر البحيرة إلى الضفة المقابلة، وأراد الملك أن يعرف للحيوانات صنيعه في إنقاذه. فأنشأ مدينة في المنطقة المجاورة للبحيرة وسماها كروكوديلو بوليس (مدينة التماسيح) وأوصى أهل البلاد بتقديس هذه الحيوانات كآلهة، ووقف البحيرة على إطعامها وشيد هناك كذلك قبرا لنفسه على شكل هرم ذي أربعة أضلاع، وابتنى أيضا قصر التيه<sup>(١)</sup> الذي نال إعجاب الجميع، ويقص المصريون روايات أخرى مثل هذه فيما يتعلق بسائر عباداتهم، ولكن الأمر سيطول بنا إذا سردناها واحدة فواحدة.

(١) ذكر في الفصل ٦١ أن باني قصر التيه هو منديس

أما أن المصلحة العامة كانت رائدهم فيما التزموا من عادات فأمر جلياً للكافة من امتناع بعضهم من تعاطي كثير من المأكولات التي تنتج في إقليمهم، فقد كان بعضهم يمتنع بتاتا من تذوق العدس أو الفول أو الجبن أو البصل أو غيرها من أنواع المأكولات بالرغم من أنها كلها متوفرة في مصر، وبذلك يتضح لنا أن الناس يجب أن يتعلموا كيف يحرمون أنفسهم بعض المأكولات المفيدة، لأنه إذا تعاطى الجميع كافة أصناف المأكولات فلن يفي صنف واحد من المستهلكات بحاجتهم، ويدلى بعض الناس بأسباب غير التي ذكرنا فيزعمون أنه في عهد الملوك الأقدمين كثيرا ما ثار الشعب وتآمر بحكامه، فقسّم أحد الملوك - وكان فذ الذكاء - البلاد إلى أقاليم متعددة، وأوحى إلى سكان كل إقليم على حده أن يصيدوا حيوانا خاصا، أو يمتنعوا من تذوق مأكّل بعينه، حتى لا يستطيع المصريون أبدا أن يتحدوا معا، فقد كانت كل فئة منهم تعظم معبودها وتزدري ما يقده الآخرون، وتبين أغراض هذا الملك من نتجائها، ذلك أن كل الذين يعيشون في أقاليم متجاورة على اختلاف شديد فيما بينهم، وقد أحفظهم التعدي على ما ذكرنا من عاداتهم.

٩٥ ويدلى البعض بسبب آخر لعبادة الحيوانات فيقولون إنه في البدء لما أقلع الناس عن حياة التوحش، وعاشوا في جماعات، كانوا يأكلون بعضهم بعضا، ويقتتلون وكانت الغلبة دائما للأقوى على الأضعف، ثم جمع الذين أعوزتهم القوة شملهم بدافع من مصلحتهم الخاصة، واتخذوا لهم شعارا هو أحد الحيوانات التي قدست فيما بعد، والتفت الفئة المستضعفة حول هذا الشعار، وكوّنت كتلة يتعذر

على المتطاولين امتهاتها ولما انتهج الآخرون أيضا هذه الخطة نفسها، انقسم الشعب إلى جماعات، وأصاب الحيوان الذي كان سبب سلامة كل جماعة من هذه الجماعات تقديسا إلهيا لما أسداه إليها من جزيل النعم. ولذلك تصيد كل جماعة من الجماعات المختلفة في مصر إلى يومنا هذا الحيوان الذي قدس عندها منذ البدء، وبالجملة فالقول بأن المصريين أكثر الناس قاطبة استعدادا للاضطلاع بزمام أي عارفة، وهم يعتقدون أن عرفان الصنيع لفاعليه ملاذ الحياة الأكبر، ذلك بأنه من الجلي أن الناس كلهم سيحرصون خاصة على بذل الصنعة لأكثر من يرون من الناس حقاظا للمعروف.

ويبدو أن هذه هي الأسباب نفسها التي يخشع المصريون من أجلها لملوكهم ويتعبدون لهم كأنهم آلهة حقا، معتقدين أنه لولا العناية الآلهية ما أوتى الملوك السطان على كل شيء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رأوا أن الذين يريدون الخير ويستطيعون تأديته لهم نصيب من الطبيعة الإلهية. وبعد فإذا كنت قد أفضت في الحديث عن الحيوانات المقدسة في مصر، فقد بحثت على أي حال بالتفصيل أعجب ما أثار دهشة الناس من الشعائر في مصر.

٩١١ وإن من يطلع على شعائر المصريين الجنائزية يعجب أشد العجب لغرابة عاداتهم فيها، فعندما يموت أحدهم يلطخ جميع معارفه وأصدقائه رءوسهم بالطين ويطوفون بالمدينة ناديين إلى أن توارى رفاته في القبر، ويمتنعون من الاستحمام وتعاطى النبيذ أو أي غذاء لذيق، ولا يلبسون أي رداء زاهي اللون، وهناك ثلاث مراتب للدفن: الأولى

باهظة التكاليف، والثانية متوسطة، والثالثة متواضعة جدا. والمقول إن تكاليف المرتبة الأولى طالنت من الفضة وتكاليف الثانية عشرون منا وتكاليف الثالثة مبلغ زهيد جدا.

والآن فالذين يقومون على أمر الجثث- وهم صناع ورثوا مهارتهم عن جدودهم- يعرضون على أهل المتوفى قائمة بتكاليف كل مرتبة من مراتب الدفن، ويسألونهم عن الطريقة التي يريدون أن يهيئوا الجثة عليها، وبعد أن يتفقوا على جميع التفاصيل، ويتسلموا الجثة يعهدون بها إلى طائفة اختصت بهذا الأمر وفق التقاليد المرعية، فيضع من يقال له «الكاتب» الجثة أولا على الأرض، ويحدد على العطف الأيسر المقدار الواجب شجه، وبعد ذلك يأخذ من يسمونه (الجراح) حجرا حبشيا ويشج اللحم طبقا للأصول المرعية، ثم يولى الأدبار فى التو مسرعا، فيقتفى الحاضرون أثره ويقذفونه بالأحجار ويلعنونه كأنهم يلصقون الجرم به، فقد كانوا يعتقدون أن اللعنة تحل بكل من يحمل بالقوة على جثة واحد من أفراد قومه إما بجرحها أو على العموم بإدخال أى عطب عليها.

أما الذين يسمونهم «المحنطين» فهم أهل لكل تعظيم وتقدير، ويختلطون بالكهنة، ويباح لهم بصفتهم مُطَهِّرين الدخول فى المعابد، وعندما يجتمعون لتجهيز الجثة التى سبق شجها، يدخل أحدهم يده فى الشج إلى الجوف ويخرج كل ما فيه ما عدا الكليتين والقلب، بينما ينظف آخر الأحشاء واحدة فواحدة بغسلها بخمر البلح ومحلول التوابل، وبالجملة فكل الجسم يجهز أولا بزيت الأرز وبعض

المستحضرات الأخرى مدة تزيد على ثلاثين يوما، ثم يجهز بالمر والقرفة ومواد من خاصتها أن تحفظ الجثة وقتا طويلا، وتضفى عليها النضارة أيضا، وعندما يتم تجهيز الجثة يسلمونها إلى أهل المتوفى، وقد أبقوا على كل عضو من أعضاء الجسم حتى إن الأهداب والحواجب تظل كما كانت ولا تتغير هيئة الجسم مطلقا، بل يمكن التعرف إلى ملامح شكله، ولذلك يحتفظ كثير من المصريين بجثت أجدادهم في غرف فخمة، فينظرون وجها لوجه إلى أسلافهم الذين قضوا نحبتهم قبل أن يولدوا هم أنفسهم بأجيال عديدة، وهكذا عندما يرون جرم كل منهم وتفصيل جسمه، وقسمات وجهه يستشعرون إحساسا غريبا كما لو كانوا قد عاشوا مع الذين يتطلعون إليهم.

٩٧ وعندما تجهز الجثة للدفن يخطرُ أهل الميت القضاة وأقرباء المتوفى وأصدقاءه أيضا بيوم الجنائز، ويعلنون للملأ أنه— وهنا يذكرون اسم المتوفى— على وشك عبور البحيرة، ثم يجتمع اثنان وأربعون من القضاة ويأخذون مجلسهم في بناء نصف دائري في الجانب البعيد من البحيرة، ويُطلق في الماء القارب «بارس»<sup>(١)</sup> الذي أعده من قبل الذين يضطلعون بهذه الأمور، ويكون القارب تحت إمرة الملاح الذي يسميه المصريون في لغتهم خارون<sup>(٢)</sup>، ولذلك يدعى المصريون أن أورفيوس أبحر إلى مصر في الزمن القديم، وشاهد هذه السنة فزور الأسطورة الدائرة حول العالم السفلي، ناقلا بعضها مما شاهد ومختلقا البعض الآخر من ذات نفسه.

(١) الكلمة المصرية قديمة بمعنى قارب أو زورق وقد دخلت في اللغة اليونانية

(٢) هذه هي التسمية اليونانية، وقد أخذها الرومان ولم يكن «خارون» معروفا لدى المصريين، وإنما يقابله في الأساطير المصرية «الرجل الذي ينظر إلى الوراء»

وسأحدث عن هذه المسألة بالتفصيل فيما بعد، وعلى أى حال فبعد أن يطلق القارب فى البحيرة، ولكن قبل أن يوضع فوقها النعش الذى يضم رفات الميت، يخول القانون لمن شاء حق اتهام المتوفى، فإذا تقدم أحدُ بتهمة أثبت بها أن المتوفى كان يحيا حياة ضالة، أصدر القضاة حكمهم علانية فيحرم الميت حق الدفن المتواضع عليه، وإذا ظهر أن المدعى اتهم المتوفى بغير وجه حق، وقع المدعى تحت طائلة عقوبات كبيرة، وإذا لم يتقدم أحدُ بتهمة، أو إذا تقدم واحد بتهمة وثبت أنه متجن، ينتهى أهل الميت من حدادهم، ويؤبنون الميت، وهم على عكس اليونان، لا يذكرون شيئا عن مولد المتوفى، معتقدين أن المصريين كلهم سواء فى شرف المحتد، ولكنهم يذكرون تربيته وتعليمه منذ طفولته، ويثنون على تقواه وعدله وضبط نفسه وسائر فضائله عندما بلغ مبلغ الرجال، ثم يدعون آلهة العالم السفلى أن تحشره فى زمرة الأتقياء، أما الجمهور فيهلل مؤمنا ويشيد بعظمة المتوفى بصفته واحدا من أولئك الذين سيخلدون إلى الأبد فى العالم السفلى فى صحبة الأتقياء.

والذين يملكون مرافق خاصة يضعون الجثة فى مكانها المعين، أما الذين لا مرافق لهم فيبنتون سقيفة جديدة فى خاصة بيتهم ويضعون النعش فيها منتصبا مستندا إلى أمتن حيطانها، أما الذين حرموا مراسم الدفن إما لأن تهما قد ثبتت عليهم، أو لأن أجسامهم كانت رهينة ديون لم يؤدوها، فيدفنون فى خواص بيوتهم، ويحدث أحيانا أن يُصيب

أحفادهم ثروة، فيوفون بالتزامات موتاهم، ويبرؤونهم من التهم المحمولة عليهم، ويقىمون لهم جنازة فخمة.

٩٣ وأقدس الواجبات المرعية عند المصريين أن يُروا وقد أولوا آباءهم وأجدادهم من التقديس بعد انتقالهم إلى منازلهم الأبدية أكثر مما كانوا يولونهم وهم فى قيد الحياة. ومن عاداتهم أن يقدموا جثث آبائهم الراحلين رهنا لدين، ويلاحق العار الأكبر الذين لا يوفون هذا الدين، فيحرمون مراسم الدفن بعد موتهم.

ولنا أن نعجب بحق بالذين سنوا هذه التقاليد، ذلك بأنهم اجتهدوا أن يُشربوا الناس البر ونبل الأخلاق لا عن طريق صلات الأحياء فحسب.. بل وبقدر ما وسعت طاقتهم عن طريق دفن الموتى وتجهيزهم، فالإيونانيون قد لجأوا إلى الخرافات الموضوعية والقصص المجرحة لتدعيم الاعتقاد بأن التقى سيلقى ثوابه، والشقى عقابه، ومهما يكن من شىء، فإن هذه الأساطير، لم يكن لها من القوة ما يمكنها من صرف الناس إلى الحياة الفاضلة، بل بالعكس كانت موضوع سخرية الأشرار، وقوبلت بالزراية التامة، بينما المسألة عند المصريين لا تدخل فى باب الخرافة، بل هى حقيقة سافرة أن الشقى يلقى عقابه، والتقى ثوابه، وكلاهما يذكر يومياً بواجباته، وهكذا نحصل على أحسن وأفيد تقويم للأخلاق، وعندى أن أحسن القوانين ليست التى يصبح الناس بفضلها أغنياء جدا.. بل هى القوانين التى يصبحون بفضلها أنبل الناس أخلاقاً وأكثر المواطنين ولاء.

٩٤ وينبغي أن نتحدث كذلك عن المشرعين المصريين الذين  
 سنوا هذه التقاليد المبتكرة الغريبة، فيحكى أنه بعد أن توطدت الحياة  
 فى مصر فى العصر القديم، وقد استقرت فى رواية البعض فى عصر  
 الآلهة والأبطال، كان منيفيس<sup>(١)</sup> أول من أقنع الشعب بالامتثال لقوانين  
 مكتوبة، وقد كان فى ذاته رجلا عظيما، وفى حياته أكثر من نشيد  
 بذكرهم أريحية، فادعى أن هرمس أوحى إليه بهذه القوانين، لتكون  
 مصدر نعم عظيمة، تماما كما كان الأمر عند اليونان فيما يقال، إذا  
 ادعى مينوس فى أقرطش وليكرجوس<sup>(٢)</sup> بين الأسبرطيين أنهما قد تلقيا  
 قوانينهم، أولهما تلقاها من زيوس، وثانيهما من أبوللو، ويؤثر أن هذا  
 الضرب من الحيلة قد جاز على شعوب كثيرة غيرها وكان مصدر أنعم  
 كثيرة للذين آمنوا، ويحكى أن زائراوستيس<sup>(٣)</sup> ادعى بين الآريين أن  
 الروح الخيرة حبته بالقوانين، وكذلك عزاها زالموكسيس zalmoxis  
 عند الأقوام المسماة بالجيتيين<sup>(٤)</sup> Getar إلى الإهتهم المشتركة هيستيا  
 Hdstia وعند اليهود عزاها موسى إلى الإله الذى يدعونه إياو، وهؤلاء،  
 إما أنهم قدروا أن الفكرة التى يكون من شأنها أن تفيد جمهرة الناس،  
 فكرة رائعة والإهية تماما، وإما أنهم رأوا أن الشعب يكون أكثر خضوعا

(١) هو فيما يظهر مينا الذى ورد ذكره فى الفصل ٤٣، ٤٥

(٢) هو مشروع إسبرطة الأكبر، وقد أعاد بتشريعاته توزيع الثروة فى إسبرطة ووضع لها  
 نظامها الحربى والمدنى، والمرجح أن ذلك كان حوالى سنة ٨٢٥ ق.م.

(٣) زرادشت

(٤) يسكنون جنوب نهر الطونة، وظهر بينهم زالموكسيس وبشرهم بخلود الروح

للقوانين لو اتجه ببصره صوب عظمة وقوة الذين يُعزى إليهم وضع هذه القوانين، ويقول المصريون إن ثاني المشرعين هو ساسوخيس<sup>(١)</sup> sasychis وهو رجل يمتاز برجاحة العقل، وقد أضاف إلى القوانين القائمة قوانين جديدة، ونظم شعائر الآلهة بحرص فائق، ووضع علم الهندسة، وعلم أهل البلاد مراقبة النجوم، ورصدها. وثالث مشرعهم فيما يقولون سيسوسيس<sup>(٢)</sup> sesoosis ولم يكتف بالقيام بأبهر الأعمال الحربية المصرية، بل سنّ تشريع الطبقة المحاربة، ووضع كل ما يتبع ذلك من أصول الحملات الحربية، ورابع المشرعين هو الملك بوخوريس<sup>(٣)</sup> وكان عاقلا امتاز بدهائه، فنظم جمع شئون الملك وشرع بالتفصيل أصول المعاملات الخاصة، وقد كان حكيما في قضائه إلى حد أن كثيرا من أحكامه مازال لفرط سداه ماثورا إلى يومنا هذا، ويضيفون إلى ذلك أنه كان أضعف الناس بنيةً وأجشع الملوك قاطبة نفسا.

**٩٥** وبعد بوخوريس صرف الملك أمازيس همته فيما يقال إلى القانون، فهو الذى نظم فيما يزعمون أصول حكومة الأقاليم، وقواعد الإدارة المصرية عامة، والمأثور أنه كان بالغ الحكمة رحيم الطبع عادلا. وقد اجتباهاه المصريون للملك من أجل هذه الصفات برغم أنه لم ينحدر من أصل ملكي، ويحكى أن الإليائيين وكانوا شديدي الاهتمام بالمباريات الأولمبية، أرسلوا وفدا يسأله كيف يمكن أن تكون المباريات

(١) يرى البعض أنه الفرعون شيب-سيس-كاف من الأسرة الرابعة

(٢) مذكور في الفصل ٤٥، ٦٥، ٧٩

(٣) راجع الفصل ٥٣ وما بعده

على غاية من النزاهة؟ فأجاب «إذا لم يشترك في المباريات أحد من الإليائيين»<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من أن بوليقرطيس<sup>(٢)</sup> Polycrates طاغية ساموس كان قد عقد معه معاهدة صداقة، إلا إنه حينما أخذ يسوم المواطنين والأجانب الذين نزلوا بساموس العسف، أرسل إليه أمازيس أولا فيما يقال وفدا يدعوه إلى الترفق، ولما لم يعره بوليقرطيس التفاتا، كتب إليه رسالة يقطع فيها ما بينهما من صلات الصداقة والمودة، ذلك أنه لم يُرد لنفسه السوء وشيكا. فقد كان يعلم علم اليقين أن المصيبة لا تلبث أن تحيق بمن يقيم مثل هذا الحكم الاستبدادي. ويقال إنه نال إعجاب اليونان لنبله ولأن ما أنذر به بوليقرطيس تحقق عاجلا، ويقال إن دارا أبا إجزر كسيس كان سادس من تفقهوا في القوانين المصرية، فقد أسخطه ما استهدفت له المعابد المصرية على يد سلفه الملك قبيز من عبث، وكان شديد الرغبة في أن يحيا حياة فاضلة تقيية، فصحب الكهنة المصريين أنفسهم وأخذ عنهم علم الكلام والتاريخ المثبت في الكتب المقدسة، ولما تعلمنها سمو نفس الملوك القدماء، وبرهم برعيتهم، احتذى حذوهم، وهكذا أصاب من التكريم قدرا عظيما إلى حد أنه الوحيد بين الملوك جميعا الذي أطلق عليه المصريون لقب إله وهو في قيد الحياة، ولما قضى نحبه، كان نصيبه من التكريم مثل نصيب الملوك الأقدمين الذين حكموا طبقا لنصوص القانون.

(١) ذكر هيردوتس، ٢، ١٦٠ هذه القصة بالتفصيل ولكنه عزاها إلى الملك بساميس

(٢) من أشد طغاة اليونان بطشا، وكان من رعاة الأدب والعلم، وقتل غيلة سنة ٥٢٢ ق.م

هؤلاء الرجال إذن امتلكوا فيما يقال في وضع التشريع العام الذي اكتسب صيتا ذائعا بين سائر الشعوب، ويقال إن كثيرا من هذه القوانين التي كانت صالحة في رأى الكافة قد تغيرت عندما انتصر المقدونيون وقضوا على الحكومة الملكية الوطنية إلى الأبد.

**٩٦** والآن.. بعد أن فصلنا هذه المسائل، يجب أن نتحدث عن أولئك اليونانيين الذين زاروا مصر في العصور القديمة ليدرسوا ما فيها من نظم وعلوم، يقول الكهنة المصريون - معتمدين في ذلك على ما ورد في الكتب المقدسة - إن أورفيوس<sup>(١)</sup> وموسى وميلامبوس Melampus<sup>(٢)</sup> وديدالوس<sup>(٣)</sup> والشاعر هوميروس وليكرجوس الإسبرطي وصولون الآثيني، والفيلسوف أفلاطون زاروا مصر في العصر القديم، ويزعمون أن العالم الرياضي يودكوس<sup>(٤)</sup> Eudoxus وديموقريطس<sup>(٥)</sup> الأبدري وأينوبيدس<sup>(٦)</sup> Oenopides الحيوى قد جاءوا إليها أيضا والأدلة التي يسوقونها على صحة هذه الدعاوى كلها هي التماثيل التي أقيمت لبعض هؤلاء اليونانيين، والبقاع والمنشآت التي سميت بأسماء البعض الآخر<sup>(٧)</sup>، والعلوم التي صرف كل منهم إليها همته،

(١) شخصية خرافية، كان اليونانيون يعتقدون أنه أشهر الشعراء قبل هوميروس

(٢) كان اليونانيون يعتقدون أنه أول من أدخل عبادة ديونيسوس عندهم

(٣) شخصية خرافية، اعتقد اليونانيون أنه أدخل فنون النحت والعمارة في أثينا وكريت

(٤) جغرافي ورياضي من تلاميذ أفلاطون، والشواهد كثيرة على زيارته لمصر

(٥) راجع فصل ٣٩

(٦) راجع فصل ٤١

(٧) جاء في إسترابون ١٧، ١ أن البيت الذي نزل فيه أفلاطون ويودكوس كان قائما في

هيلوبوليس

زاعمين أن كل ما نالوا الإعجاب من أجله عند اليونانيين كان منقولاً من مصر، ويقولون إن أورفيوس نقل من مصر أكثر الطقوس الباطنية والشعائر السرية المتعلقة بسياحته، وأساطير العالم السفلي، ذلك بأن شعائر أوزيريس هي بعينها شعائر ديونيسوس، كما أن شعائر إيزيس قريبة الشبه جداً بشعائر ديميتير مع اختلاف في الأسماء وحدها، فعقاب الأشرار في العالم السفلي، وجنات الأتقياء وما ينسجه الخيال من ترهات يؤمن بها الكثيرون، مستقاة من الشعائر الجنائزية في مصر، ذلك أن رائد الأرواح هرمس يسوق - طبقاً للطقوس المصرية القديمة - جسم إبيس إلى مكان ما ويسلمه للذي يلبس قناع كريبروس Cerberus وثبتت أورفيوس هذا التقليد بين اليونانيين وتابعه هوميروس وقال في شعره:

«وابتعت هرمس الكليني أرواح الخطاب وقد قبض بيديه على عصاه السحرية» ثم عاد بعد أبيات قليلة فقال<sup>(١)</sup>

قد عبروا أمواه المحيط

وصخره الضوء اللماع

جاوزوا أبواب الشمس ومنطقة الأحلام

وها قد بلغوا بغتة رياض الشقائق

حيث تسكن الأرواح وأشباح الموتى

(١) الأوديسية ١٠٢٤ - ٢ و ١١ - ١٤

وهكذا يسمى الشاعر النهر، «المحيط»<sup>(١)</sup> لأن المصريين يطلقون على النيل هذا الاسم في لغتهم، أما أبواب الشمس (هليوس) فهي أبواب مدينة هليوبوليس، والرياض- مساكن الموتى الخرافية- هي المروج القريبة من البحيرة التي يقال لها أخيروسيا بالقرب من منف، وتكتنفها المروج البالغة الجمال والمستنقعات ونبات البردى والغاب، ومن هنا قيل إن مساكن الراحلين تقع في هذه البقاع لأن أكثر مدافن المصريين وأعظمها قائم هناك، فينقل الموتى عبر النهر وبحيرة أخيروسيا وتلحد جثثهم هناك حيث توجد مقابرها.

وتتفق أساطير اليونان الأخرى حول العالم السفلي مع التقاليد التي لا تزال قائمة في مصر، ذلك بأن السفينة التي تحمل جثث الموتى تسمى بارس، ويُنقذُ الجعل للسفان الذي يدعى في لغة أهل البلاد خارون، ويقولون إنه يقع بالقرب من هذه المنطقة معبد هيكاتس إلهة الظلام و منافذ كوكيتوس<sup>(٢)</sup>، وليتى<sup>(٣)</sup> وتتخللها قضبان من البرنز، وهناك أيضا بوابات أخرى «للحق» وبالقرب منها يقوم تمثال بلا رأس «للعادلة».

ولا يزال كثيرٌ غير هذه من الخرافات سائدا في مصر، وما انفكت الأسماء فيها باقية، والطقوس لا تزال معمولا بها، ففي مدينة أكانثوس فيها وراء النهر في الناحية اللوية، وتبعد مائة وعشرين ستادا عن منف، توجد جرة مثقوبة يحمل إليها الماء من النيل كل يوم

(١) الواقع أن هوميروس لا يعرف النيل إلا باسم إيجيتوس

(٢) نهر الأحزان المتصل بالعالم السفلي.

(٣) نهر النسيان المتصل بالعالم السفلي

ثلثمائة وستين كاهنا<sup>(١)</sup>، وبالقرب من هذه الناحية نرى خرافة أكنوس<sup>(٢)</sup> لا تزال تقام بالتمام في أحد الأعياد، حيث يضفر أحدهم حبلا طويلا، بينما يحل كثيرون من ورائهما ضفر، ويقولون إن ميلامبوس نقل من مصر الطقوس التي تواضع اليونان على إقامتها لديونيوسوس، والخرافات الدائرة حول كرونوس، وقصص الحروب ضد المردة، وبالجملة حكاية كل ما عاناه الآلهة، ويدعى المصريون أن ديدالوس قلد دروب التيه المصرى الذى لا يزال باقيا إلى وقتنا الحاضر، وقد ابتناه على قول البعض منديس وعلى قول آخر ماروس<sup>(٣)</sup>، وقد تولى الحكم قبل الملك ميونس Minos بسنين عديدة، ونسب التماثيل المصرية القديمة هي نفس نسب التماثيل التي أقامها ديدالوس عند اليونانيين، ويقال إن البوابة الخارجية في معبد هيفايستوس في منف، وهي جميلة جدا، أنشأها ديدالوس، وأعجب به المصريون وأقاموا له تمثالا خشبيا في المعبد المذكور كان من صنع يديه هو نفسه، وأخيرا فقد اكتسبته عبقريته شهرة عظيمة، وبعد أن قام باكتشافات كثيرة حظى بالتقديس الإلهي، ويوجد إلى الآن معبد لديدالوس في إحدى الجزائر بالقرب من منف ويقده فيها الشعب.

(١) إشارة إلى بنات دناؤس الخمسين اللائي كتب عليهن بعد الموت أن يملأن جرات لا قعر لها.

(٢) فى الأساطير اليونانية أن أكنوس فى العالم السفلى كتب عليه أن يضفر حبلا ووراءه حمار يأكل ما يضفر

(٣) راجع فصل ٦١

ويُقدّم المصريون أدلةً كثيرةً على زيارة هوميروس لمصر وأخصها الدواء الذي أعطته هيلينة لتيليمّا خوس في بيت مينيلّوس، وما جلب له من نسيان الشرور التي أصابته، وهذا هو دواء النينثيس<sup>(١)</sup> Nepenthes الذي يقول الشاعر إن هيلينة قد أخذته من بوليدامنه زوج ثون في مدينة طيبة المصرية، ومن الجلي أنه فحصه جيدا، وهم يدعون أن النساء في تلك المدينة يستعملون إلى الآن هذا الدواء الناجع. ويقولون إنه اكتشف منذ الزمن القديم دواء لشفاء الغيظ والألم بين نساء ديوسبوليس وحدهن، ومدينة ديوسبوليس هي نفسها مدينة طيبة، وهكذا ينعت الأهالي أفروديت بلقب «الذهبية» في الأساطير القديمة، ويوجد حول المدينة التي يسمونها مومفيس سهل يقال له (أفروديت الذهبية) ويقال إن هوميروس نقل من مصر أسطورة معاشرّة زيوس لهيرا ورحلته إلى الحبشة، وفي كل عام ينقل المصريون مقصورة زيوس عبر النهر إلى لوبيا، وبعد بضعة أيام يرجعونها بالتالي كما لو أن الإله قد قفل راجعا من الحبشة، أما عن معاشرّة هذين الإلهين فإن مقصورتيهما تنقلان في الأعياد إلى تل قد فرشاه الكهنة بجميع أنواع الزهور<sup>(٢)</sup>.

- (١) معناها مسكن الآلام، والإشارة إلى قول هوميروس في الأديسية ٤، ٢٢٠، ومن ثم سكبت في الخمر الذي كانوا يشربون منه دواء مسكنا للآلام، ومنسيا لجميع الأحزان
- (٢) يشير ديودور إلى قول هوميروس في الإلياذة ٢، ٣٤٦ - ٨ «أما ابن كرونوس فمخ خليلته بين زراعيه، وأخرجت الأرض الطيبة تحت أقدامها حشائش ناضرة غضة وبشنين نديا، وزعفران وعيسلان رخصا سميكا».

❧
 ولقد اقتبس ليكرجوس وأفلاطون وصولون كثيرا من السنن المصرية في شرائعهم وتعلم فيثاغوراس من المصريين علم الكلام ونظريات المساحة والحساب، وحلول الروح في أنواع الحيوانات المختلفة، ويعتقد المصريون أن ديموقريطس قضى بينهم خمس سنوات تعلم فيها كثيرا من مسائل علم الهيئة، وتعلم أونوبيديس فيما تعلم بملازمة الكهنة وعلماء الهيئة أن الشمس تدور في شكل إهليلجي في اتجاه مضاد لسائر الكواكب، وكذلك بعد أن درس يودكسوس عند المصريين علم الفلك نقل كثيرا من العلوم المفيدة إلى اليونانيين وأصاب عندهم شهرة عظيمة.

ولقد زار مصر أشهر المثالين القدماء تليكليس وثيودوروس ولدا رويكوس اللذان نحتا لأهل ساموس التمثال الخشبي لأبوللو البيثيني، وشاع القول بأنتليكليس أنجز نصف التمثال في ساموس، في حين أنجز أخوه ثيودوروس النصف الثاني في إفسوس ولما وضع النصفان بجانب بعضهما التأما إلى حد أنه كان يبدو كأن الأثر الفني كله كان من صنع رجل واحد، وهذا الأسلوب في الصناعة لم يصطنعه اليونان أبدا، في حين أن المصريين عاكفون عليه على وجه التخصص، ذلك أن المصريين لا يحكمون على تناسب التمثال بما يقع تحت أعينهم من منظور كما هو الحال عند اليونانيين.. بل إنهم بعد أن يصفقوا الحجر، ويقسموه ويبدأوا العمل فيه، حينئذ يأخذون النسب والأبعاد صغيرها وكبيرها على حدٍ سواء، وهم يقسمون هيكل الجسم كله إلى واحدٍ وعشرين قسما وربع قسم، وبذلك يعطون كل نسب المنظور، وهكذا عندما يتفق الصناع

فيما بينهم على حجم الأثر الفني، يعملون كل على حده، ويهيئون حجم التمثال بانسجام دقيق إلى حد أن تفرّد أسلوب صناعاتهم كان مثار عجب عظيم، وهكذا نحت تمثال ساموس طبقاً لأصول الصناعة المصرية، فقد شطر التمثال نصفين من قمة الرأس إلى العورة، وهذان النصفان متماثلان من جميع الوجوه، ويقال إن هذا التمثال يشبه في معظم الوجوه التماثيل المصرية وقد امتدت يداه وانفرجت رجلاه.

هذه إذن عجالة كافية في تاريخ مصر وما هو جدير بالذكر فيها وسنتبعها طبقاً للخطة التي وضعناها في مستهل الكتاب بما تلا ذلك من حوادث وأخبار مبتدئين بما حدث للآشوريين في آسيا.